

ناي من ورق

ناي من ورق
رسائل
أنس عبد الولي
تصميم الغلاف: كريم آدم
رقم الإيداع: 2020/ 2429
I.S.B.N:978- 977-6640-89-4
الطبعة الأولى 2020م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.
المدير العام: آية سعد الدين
مدير النشر : د. رامي عبد الباقي
هاتف: 01099387500 - 01147633268
E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish
جميع الحقوق محفوظة ©

أنس عبد الولي

ناي من ورق

رسائل



الإهداء..

إلى من كانت حروفها معطفاً لروحي حين عصفت بها الرياح
إلى من أشعلت فيّ جذوة الحلم حتى صار لهيباً.. ثم هطلت عليه وأطفأته
إليك.. دون اسمك غيرة من الورق
إليك.. حباً يوقد ضوء الشمس لأجلك كل صباح

تقديم

فن الرسائل واحد من الفنون الأدبية الثرية، والتي كان لها وجودها البارز في تراثنا العربي جنباً إلى جنب مع الخطابة والمقامة والمناظرات والسير والحكايات.. وقد تعددت أنواعها بتعدد أغراضها فصنفت بالديوانية، والإخوانية، والأدبية.

ويمكن تصنيفها اليوم بالرسمية كتلك التي تتبادلها المؤسسات والهيئات فيما بينها أو مع الأفراد الذين يتعاملون معها، والرسائل الذاتية: هي التي يتبادلها الأشخاص لأغراض وجدانية أو حاجات شخصية.

ولعل النوع الأهم هو ما عرف بالرسائل الأدبية: وهي التي يرسلها أديب إلى آخر محاورة له، أو شهادة في مسألة ما.

وهذا النوع من الرسائل هو ما اشتهر في أدبنا العربي، ومنه ما خرج إلى باب التأليف وحينها تصبح تسميتها بالرسائل وسيلة لنشرها لا أكثر، وقد عرفت بعدة أسماء منها: التوقيعات والترسل أو المكاتبات.

ومن الرسائل الأدبية الهامة (رسالة الترييع والتدوير) للجاحظ التي يسخر فيها من أحد معاصريه مستهزئاً بشكله المربع والمدور في آن معاً، وهي لا تبتعد كثيراً عن (رسالة الغفران) التي سخر فيها من ابن القارح. ومنها (رسالة الزوابع والتوابع) لابن شهيد، و(طوق الحمامة) لابن حزم الظاهري ورسائل ابن زيدون القرشي لولادة بنت المستكفي.

وفي التصوف نقرأ (الرسالة القشيرية) التي صنفها في التصوف الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي وبعض المتصوفة نشروا رسائلهم تحت مسمى مكاتبات مثل: (مكاتبات الإمام الحداد)، و(مكاتبات عبد الله وطاهر حسين بن طاهر)، و(مكاتبات الحبيب علي بن محمد بن حسين الحبشي).

وأما ما كان أقرب الى غرض الرسائل في عصرنا الحديث نجده فيما دار بين غادة السمان وغسان كنفاني. والتي جمعتهما غادة ونشرتها في عام 1993.

وكان للأدبية مي زيادة رسائل أدبية موجهة لعدة أطراف منها القريب كالعقاد وأحمد لطفي السيد، ومنها البعيد كجبران خليل جبران حيث تبادلوا الرسائل لأكثر من عشرين عاماً دون أن يتقابلا فكانت مي التي أحبت جبران وأحبها على البعد تقول: (ذاك هو مصيبي)، وفي كتاب (رسائل جبران التائهة) التي جمعها رياض حنين عام 1983 في بيروت قرابة منتي رسالة بين جبران وآخرين وأخريات منها 19 رسالة لم تنشر قبل ولادة الكتاب. تبادلها جبران مع شخصيات أدبية وسياسية.

ومن رسائل الأدب الثوري نجد ما كان يدور بين سميح القاسم ومحمود درويش حيث كتبوا عن الحب والمنفى والغربة والوطن السليب.

وأما هذا الكتاب الذي بين أيدينا فهو ينطوي تحت عنوان فن الرسائل التي تجمع ما بين الأدبية والذاتية، هذا الفن الذي كاد ينقرض أمام مد وسائل التواصل الاجتماعي التي أدت إلى تغيير شكلي ومضموني فيه، وبالتالي فأول مزية له هي أنه ينفخ من روح كاتبه في رماد فن الرسائل لتألق من جديد.

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الرسائل مغرقة في الذاتية، والخصوصية التي لا تعني إلا المرسل والمرسل إليه، وهما حبيبان لهما قصتهما الخاصة، ولكن ما إن نتغلغل في عبق بوح تلك الذاتية حتى نحلق بنا نحو سماوات إنسانية يتوحد فيها البشر جميعاً، فهي تنطلق من الذاتي لتلامس المشترك الإنساني في الحب والألم والسعادة والشقاء وانتهاء برغبة الوجود وقلق الفناء.

فالمخاض الذي انبثقت منه هذه الرسائل هو الحب الذي عصفت بذات كاتبها فتناثرت لواعجه على الورق رسائل حتى كادت تحوّم في ملكوت قصيدة النثر أحيانا ملامسة شغاف الشعر كما يصرح في بداياتها بقوله:

رسائلي إليك هي جنوح شوق في فؤادي المعذب.

ولعل أسمى أنواع الحب ذاك الذي يستعصي على التفسير والتأويل، ولذته تكمن في ألمه، كما يقول بدوي الجبل:

ما فارق الرّي قلباً أنت جذوته ولا النعيم محباً أنت بلواه

غمرت قلبي بأسرار معطرة والحب أملكه للروح أخفاه

ويقترّب الكاتب في إحدى رسائله من هذه المعاني في قوله:

كيف يمكن أن أشرح لأحد معنى أن يقع في حب قطعة موسيقية لم تعزف بعد.. في حب وردة خلف سياج بارد.. في حب الزغب اللطيف على وجنة القمر.. أن يقع في حب نتفة ثلج تائهة اختارت راحة كفه لتذوب عليه.. كيف أشرح لأحد معنى أن أقع في حبك أنت..

فالكاتب ينطلق من نفس تسكب الحب على كلّ ما حوله ليكسبه جماله ووجوده الذي سيغيب بغياب ذاك الحب، هي نفس تواقّة إلى السمو نحو حب مطلق متعال على العذاب والشكوى، نفس تتوق إلى الحب توق الفراش إلى اللهب تذكرنا بقول البدوي مرة أخرى:

سما بحسّنتك عن شكواه تكرمة وراح يسمو عن الدنيا بشكواه

يريد بدعا من الأحزان مؤثلقاً ومن شقاء الهوى يختار أقساه

ويتخلل تلك الرسائل عمق رؤيوي جاء خلاصة لتجربة الحب التي تضمنتها تلك الرسائل فنرى نقداً وتمرداً على العادات والأعراف التي توطّر العلاقات والقيم الإنسانية، بل وتدفعها في مغاورها القديمة تحت ظلمة طحاليها العفنة كقولة في رسالة أخرى:

ولكيلا يلاحقنا عار القبيلة فإننا نفضل شئ العصفير المغردة خارج أسوار معتقداتنا حتى لو كان على حساب تحطيم قلوب أبنائنا وتمزيق أرواحهم.. يا للظلم!

وإضافة إلى نقد المجتمع نقراً رؤى وجودية تتمثل في صراع الانسان بينه وبين مشاعره وهيمنة تلك المشاعر على الوجود الإنساني كقوله:

إن داخل كل منا تسكن خبيبة ما تتغلغل في قلبه تتغذى من روحه، حتى يظن مع مرور الوقت انها تلاشت في جب الذاكرة، إلا أنها لا تزال تسري في

دمه حتى تسيطر عليه بالكامل، إنك لا ترين أناساً في الطرقات أنت ترين
خيبات تمشي أمامك يا خيبي الأخيرة.

لن أطيل في تقديم تلك الرسائل بل أتركها للقارئ الذي لا شك أنه سيجد
فيها شيئاً من ظلال ذاته وبوحاً طالما تردد في جنبات صدره دون أن يصل إلى
شفاهه أو قلمه.

زياد الأحمد

ناقد أدبي

عزيرتي ناي..

أود أن أعلمك بدايةً أنني وقد وصلت إلى هذه المرحلة،
التي قررتُ فيها أن أفرغ ما في جعبتي -أو بعضه إن صح
التعبير- قد مررت بآلاف المخاضات قبل ذلك، وعندما
أقول مخاضاً فإنني لا أقصد بذلك صيغة المبالغة، بل
أعني الفعل نفسه.. فالله وحده فقط يعلم ما مرّ وتمرّني
من آلام منذ رحيلك الجارح...!

وهأنذا الآن بين يديك أسقط الحمل عن قلبي، وأبشه
لك شوقاً علّه يصلك ذات يومٍ وتقرئينه.

رسائلي إليك هي جنوح شوقٍ في فؤادي العذب، لم
أستطع إرسال الورد والدموع والقبل، وكلّي أملٌ أن
تقبلي كلماتي البسيطة جداً ولغتي السيئة جداً جداً..
لأنه لم يعد لدي رغم آلاف الوسائل أية طريقة أبليغكِ
بها أنني أشواقك كثيراً.. وأني أحبك أكثر...!

ماذا أردتُ أن أقول؟!

حقيقةً إنّ الحروف تتلعثم في حلقي، وأبذل جهداً كبيراً
لأكون جملة مفيدة أقولها لك، ما زلت لم أعتد بعد على
إرسال رسائل عبر المجهول، فطالما كانت كلماتي لا
يفصل بينها وبينك إلا ذلك الطريق المعشب الممتد من
هجرتي حتى قلبك..

والآن.. أنا أكتب للريح!

أكتب لأن الكتابة هي شعوري بالحاجة الماسة إلى
البكاء، وما حيلتي أن كتفك مسار دموعي الوحيد...!
ليس هذا فقط ما يفضيني.. وإنما شعوري بأنني
فقدتك إلى الأبد يحول حياتي إلى جحيم..

النظر إلى طيفك وهو يذهب بعيداً دون أن يكون لي
خيار أن أتمسك به كما يحسك الطفل بيد أمه مخافة
الضياع، دون أن أستطيع فعل شيء، يفقدني أية رغبة
في هذه الحياة..

إنني أسأل الكون من حولي علني أجد إجابة تطفئ
البراكين داخلي "لماذا"؟

لماذا أوجدك الله في حياتي؟

لماذا بعث في كل هذا الحب الذي أكننته لك، ثم أبعدك
بهذه الطريقة المؤلمة؟!

هل هو العذاب الإلهي المقدّر لي في هذه الحياة كي
أصل إليه طاهراً من آثامي؟

ثم أنظر إلى إجابتك عن هذا السؤال حينما قلت:
لعله الخير!

أين يكمن الخير في أن أعيش حياتي معذباً منفياً أصارع
الأشواق؟

أجر ذبول هزيمتي على أرصفةٍ شهدت على خطانا
يوماً؟!!

ولعل إجابتي عن هذا السؤال المحير هي ما أخذتُ
أعتقد به مؤخراً، فبالنظر إلى نفسي ومقارنتها بك، أجد
أنه من العدل الإلهي ألا يجتمع شملنا...!

إنني منذ تعرفت إليك، ومنذ أن بدأت علاقتنا تكبر
وتزداد عمقاً، أحسستُ بأنني لا أستحقك، لا أستحق هذا
النبيل والجمال التقديين.. وقد نما هذا الشعور داخلي كلما
ازددت توغلاً بك..

وعندما أسررتُ بهذا الأمر إلى "قمر"¹ زهرتني بشدة،
وقالت لي: لو لم أكن أعرف أنك تستحقها كما تستحقك ما
كنت لأجمعكما سوية، أريدك أن تطرد هذه الأفكار
الغبية من رأسك الصغير، بل أقول لك شيئاً؟ على ناي
أن تفكر إن كانت تستحقك أو لا وليس أنت...!

لم أقتنع بجوابها واعتبرته رداً عاطفياً يقابله آلاف
الوقائع التي تثبت العكس، والتي تجعلني مقتنعاً أنّما
اقتناعي بأنني لو دهبك قلبي وعيني لما وفيتك حقك!

وأنا لا أقول هذا إنقاصاً من نفسي، لا.. فأنت أكثر
العارفين بمدى صدقي معك ووفائي لك، وإنما أقوله لأنني
رأيت فيك ما لم أكن أتصور وجوده في يوم من الأيام..
إن طهر قلبك ونقاء سريرتك لم يوجد قبلك ولن يوجد
بعدك.

إنني أسير إلى الجنون بخطى ثابتة يا ناي..

1- قمر رستم: الصديقة المشتركة بيني وبين ناي وهي صاحبة فضل معرفتي عليها، وكانت صديقتي الأولى وبيت سري ذات يوم.

أحدث الأزهار عنك فأراها تبتسم لي عندما أذكر لها
عينيك البريئتين وابتسامتك الساحرة، ثم أتوقف عن
الحديث لإحساسي بالغيرة منها..

ومع إقرارى بأن حكايتنا لا تروى ومن أنك أكبر من
الكلمات وأجلّ من الوصف ليس لأنك استثنائية
وحسب، بل لأن هنالك أشياء غير قابلة للشرح، وإنما
وجدت لكى تحس فقط..

كيف يمكن أن أشرح لأحد معنى أن يقع في حب
قطعة موسيقية لم تعزف بعد.. في حب وردة خلف
سياج بارد.. في حب الزغب اللطيف على وجنة القمر..
أن يقع في حب نتفة ثلج تائهة اختارت راحة كفه
لتدوب عليه.. كيف أشرح لأحد معنى أن أقع في حبك
أنى..

آلان كايا

ناي يا معذبتي:

استيقظتُ لهذا الصباح باكياً، عيناى تغرورقان
بالدموع، حلقي متيبس كقول الصيف، أصبح بصوت
منقطع: سلامتك يا حبيبتي.. سلامتك يا ناي!

كانت أي جالسةً تراقب هذا الاستيقاظ الأليم الذي
قطع عليها قرونها الصباحية، وقد ملأت الدهشة
وجرحها ولسانها عجزاً عن الكلام..

نرفست من فراشي على الفور وذهبت لأغسل
وجري، لاحظت أنني كنت أشرق كطفل صغير نزعوه
لتوّه من صدر أمه.. مكثت أمام المغسلة إلى أن استعدت
شيئاً من طبيعتي، فرجبت لأجلس وحيداً على شرفة
البيت محاولاً بذلك تجاوز أسئلة أي المتوقعة عما يحدث
معي..

لقد كان هاماً بشعاً، كنت تبكين على كفتي كأنك لم
تبكي من قبل، كنت تنسجين:

أبعدوك عني يا حبيبي.. قتلوا كل أهلامي...!

بكيْتُ لبكائك، صرْتُ أبكي علينا، على آمالنا المسلوقة
حتى استيقظت على هذه الحال...!

إنني أحلم بك كثيراً يا ناي.. أحلم بك كل ليلة، وهذا
ما يجعلني أود لو أنني أنام العمر كله لأملك أطول وقت
بين يديك..

آلان كايا

ناي.. يا حياي

هذه الأيام يبدو العالم تافهاً في نظري! كل شيء كان
يتقياً تفاهة!

حتى تلك الأشياء التي كانت تحفزني وكنت أجد متعة
في مزاولتها لم تعد تستهويني البتة...!

هذا المساء كنت أمضّر مباراة لفريقي المفضل ريال
مدريد، ضد فريقك المفضل بايرن ميونخ في ربع نهائي
دوري أبطال أوروبا.. كانت مباراة ملحمة بالفعل، إلا أنني
لم آبه لها!

حاولت أن أظهر تفاعلاً لكي أتجنب أسئلة أصدقائي
الذين اعتادوا ردّات فعلٍ المبالغ بها في التشجيع.. لكنني
لم أستطع، أحس أنني فقدت الشعور بلذة الأشياء، أو لم
أعتد بعد على غياب وجهك الذي كان يضيء جمالاً على
كل شيء؟!!

لا أدري!

لقد فقدت الحياة قيمتها عندي، وأصبحت شخصاً
خادياً من الداخل، أقرب إلى الجثة من الخارج.. بلا لون،
بلا رائحة، وبلا حياة!

لكن ما لم أفقده أبداً هو قيمتك عندي يا ناي.. إن
قيمتك في قلبي لا تمس ولا تنقص، بل تزيد مع كل
نفس أتفسه في هذه الحياة البائسة.. مع معرفتي
الكاملة بأنني لا أخطئ بالمكانة نفسها، وأن محبتي لك
ليست كمحبتك لي، لكن لا بأس..

لقد عصف بي حبك كإعصار زلزل كياني، فماذا
تركيني الآن؟! لماذا انتشلتني من الضياع ذات شتاء إن
كنت تريدن تمزيقي بهذه الطريقة؟!

أتذكرين ذلك الشتاء؟ حين قَدِمْتَ إليّ ملاكاً ما وراء
الشمس، تحملين الدفء والنور إلى حياتي المظلمة.. لقد
كنت مَهالِكاً أقف على سفير الهادية، لا أقوى حتى
على الزج بنفسي إليها، خائفاً من كل شيء..

حتى جئتِ أنتِ براحتيك الحانيتين تمسدين على قلبي
وتزيلين الجبال الرابضة فوقه، رحبتِ تشريعين نوافذي

وتبئين نورك فيّ، تخيطين كل ثقوب روعي وتوقدين
فيها الدفء بعد أن تمكّن الصقيع منها.. وفي غمرة كل
هذا كنتُ أنظر إليك غير مصدق ولا عارف بما يجري..

كنتِ تقطرين طيبةً ورقّةً وطفولةً، لقد أثرتِ عمتي
على كل الضياء من حولك..

كنتُ أسأل نفسي دائماً.. أهنالك جمال كهذا؟!!!

كنتِ لا تُصدّقين أبداً لشدة قداسة روحك، وطهارة
قلبك ونقاء سريرتك.. فاماذا إذن؟!

لماذا لم تتركيني على ما كنت عليه بدل أن تفعلي بيّ
أشد من ذلك، وأقسى بكثير...!

لقد حطمتِ قلبي يا ناي..

لقد أحرقتِ روعي ونثرتِ رمادها تحت أقدام
العابرين...!

أكنتُ أستحق منك هذا الشيء؟! ألم أكن مستعداً
لأهبك حبات عيني لو أردتها؟! ألم أتمسك بك كما
يتمسك المحتضر بنفسه الأخير؟! فاماذا إذن!!!

لقد قلت لي في رسالتك الأخيرة أن العالم كله يقف
ضدنا، وأن الليل انتصر على الضياء وأحكم سواده الخالك
علينا، ليس كما كنا نردد دوماً: " حيث نحابب لا يحيم
الليل أبداً"²

فماذا تقفين مع العالم ضدي!

لماذا تركتني للربح وخيبر؟

إن قصتنا تستحق أفضل من هذه النهاية.. إن قلبينا
وُجداً ليتآلفا معاً، فماذا تسحقينها بهذه الطريقة
القاسية؟!..

لست الطرف الأضعف يا ناي صديقي.. إنك تملكين
قوة لا قبل لأحد على الوقوف في وجهها..

أنت تدعين الضعف، إلا أنني شهدت عكس ذلك
وفوجئت به! إنك لا تعرفين نفسك قدر ما أعرفك..

2- اقتباس من رواية (لأنني أحبك) للروائي الفرنسي غيوم ميسو، وكانت هذه العبارة هي
العنوان العريض لعلاقتنا.

إن أحلامنا التي بنيناها ليست قلعة رملية تخرُّ إذا
هبت عليها الريح.. بل هي العاصفة التي ستقتلع كل
من يقف في طريق تحقيقها.

أنا ماضٍ في الطريق التي بدأتها معاً..
سأضي وأنا أحمل حبك فيّ على طول الطريق
الواصل بين قلوبنا.

آلان كايا

ناي.. يا جحيم أشواقى!

يحزنني كثيراً أن أستقبل شهر رمضان بهذه الحال..

الذكريات تمزقني

أستحضر طيفك في كل ثانية

أتذكر كل الأحاديث الطويلة في ليالي الصوم..

ولأجل سخرية القدر فقد عادت لي مشاكل النوم،

تمنع عني وكأنه يقول لي عيش الذكريات بكل لحظاتها،

ولا تُفعل شيئاً..

فقدت الشهية للخروج مع أصدقائي للتسكع في

المقاهي، والسرير خارجاً حتى موعد السحور كما هي

عادتي وفضلت قضاء الوقت مغلقاً على نفسي كل

شيء..

إن اسمك لا يبرح شفتيّ

طيفك لا يكاد يفارق خيالي المتعب

إنك ترائين لي في كل وقت.. أراك حيث أدير عيني
كأنك ساكنة برما، تتجلين بشكلك الملائكي في خيالي إذا
ما انصرفت إلى صلواتي، وكأني أصلي لأجلك..

إنني أجد لذة لم أعدها من قبل حينما أذكر اسمك في
سجودي طالباً من ربي أن يردك لي رداً جميلاً، إنني
أحس بالانعتاق والخشوع عند لفظ اسمك في تلك
الوضعية المقدسة، وكأني أردد اللفظ المناسب في المكان
المناسب...!

لقد توقفت عن حساب الثواني منذ رحلت، ليس لأن
ذلك لم يعد يرمني، بل لأنني اكتشفت أن الشوق يحسب
بحجم الألم لا بطول الوقت، ويحزنني أن أبلغك أنه قد
مضى على رحيلك: مائة ألف دعة وسبعون ذبحة قلبية
بحسب التوقيت المحاي لغيابك وغيبيتي..

آلان كايا

ناي.. يا قديستي
 صباح الخير..
 إنني أستيظ كل صباحٍ لأمتأى بكِ
 فالصبح ينبثق من وجهتيك
 عيناك غيمتان صيفيتان
 ابتسامتك تضيء الكون
 تردي الأرض
 فينمو عشب
 ويفتق على قلبي ليلك..
 نرجس..
 بيلسان..
 إنني أكاد أجنّ شوقاً إلى لحظة واحدة أبادلك فيها
 قول: صباح الخير..
 إنني بحاجة لأن أقول لك أحبك يا مجنونتي!
 إن كل ما فيّ يبتسم إذا ما ذكرتِك، وإن كل ما فيّ يحبك
 ويشاقك..

أين مني كفالك الناعمتان الدافئتان، أدسُّ فيهما رأسي
فينجاني قبح هذا العالم كله

آه يا كفيك.. يا وطني..

بلغني اليوم من أهد الأصدقاء أنك مريضة بالحمى،
أحسست بالضيق الشديد، أشعر بالألم عليك، وأتمنى لو
كان باستطاعتي شيء أقوم به لأجلك، أشعر بالحسرة
لأنني بعيد عنك..

إن الكلمات تعصف بي من الداخل، أريد على الأقل أن
أكلمك وأقول لك: سلامتك يا حبيبتي، يا ليت الحمى
أصابتني ولم تقربك يا مرجتي..

أريد أن أمسك يدك وأقبل جبينك..

أريد أن أفعل الكثير من الأشياء التي تخفف عنك،
ولكن لا حيلة لي غير أن أموت قرأ عليك...!

آلان كايا

العزيزة ناي..

في تلك الساعة من شرقات الليل تطفو الساعة
حُبلى بالأشياء..

ضجيج ملء

حرب

حنين وفراغ قاتل..

وأنا طفلة أدس الصمت بحجر الوجد أغنية

أجر الغنة بحبلين ناميين في الخلق، حرفاً وبكاء..

أستقرئ صوت الريح وقد نهبت وعيي

أنا المولود الضائع في سري

أنا الموهوع من نقرة رأسي حتى السرّة

أنا المغبون النفي المغرب بصمت..

في الريح دم

وفي الدم صوت القفص القفل

كيف اندسّ هناك؟! هذا النرب الوحشي!!

كيف اختلط بصوت الريح حديدُه؟

أمتأخُّ بتلفّت الهارب

أحمل فيّ كسرة حاتم ومخاوف ليلية..

وحريقُ الصوت، مكافأةً أولى

أجسّ النبض

أمشي بلا قدمين

أحمل ريشي صرة وجعٍ وأغيب..

وأتوه ثم أذوب في ظلمة جوفٍ لجيٍّ

في صدرِكَ هناك..

هنالك قلعة صميتٍ موصودةٌ

في القلعة رنجٌ

في الريح عواءٌ ينرب

يفشي بالأسرار

يحمل شبري بالسرِّ إلى الساجن

والسجنُ هو الفدُّ..

يقتات اللغة على مهلٍ

وهرمس شفاهٍ مبتورةٍ يضم بقية الأسرار..

في الفد سرٌّ يقتادني شجنًا

عبر البعد المملوء بالإيماء..

والنون، مرساة أنثى عابثةٌ بأصدافي

تغني إن فارقني صوتي

تعجن لحمي بيديها، كي أسقط من سقف التعلق

والانتماء

كم أتمنى أن يطير هذا السقف اللحمي

فأمتص الفضاء بشرقة عابثٍ

وأسقط على لحمك مزقًا، كأني ولدت منك

وكأني أعود الآن هذا الطفل الفاء من مخاوفه..

آلان كايا

نأي.. يا جنّتي

كيف حالك يا صغيرتي؟

كيف حال عينيك الموقدتين خيط الضياء في حياتي
الظلمة؟

عزيزتي:

إنني أسأل نفسي ما معنى أن أتلقي هذا اللم من
الرسائل التي يتمنى لي أصحابها الخير في كل عام؟!!

وبغض النظر عن كل تلك الدعوات، والعبارات المنمقة
إن كانت عن قصد، أو أنها مجرد تأدية لواجب اعتاده
الناس، فكيف لي أن أكون بخير وأنت بعيدة عني؟!!

كيف يمكن لنا أن نخرج السمك من الماء، ثم نتمنى له
الخير في أعوامه القادمة!!

هل سيكون له أعوامٌ قادمة؟!!

لأكن صريحاً معك.. إن هذه العبارات، والأمنيات
باتت تشعرني بالاشمئزاز، لأنني بتُّ أعرف أنها لا تعدو
عن كونها ما يقال ولا يرجى!

كل يوم أصحو، وأتبادل مع من هم حولي صباح
الخير.. لكن هل ذلك الصباح هو خيرٌ حقاً؟

لا لم يكن خيراً قطّ منذ أن حُرمتُ سماع صوتك فيه..

إنني أقارن كل هذه الجمل، والأمنيات التي تقال لي
بواحدة من عباراتك الرقيقة التي كنت تقولينها لي،
لقد كانت قلبيةً صادقة.. لقد كنتُ أسّي وأصبح على
خيرٍ فعلاً، بينما الآن غدت أوقاتي كلها أبعد ما تكون عن
الخيرِ ملؤها السواد والخيبة..

رحلتِ بكلّ الكلمات، وصادرتِ كلَّ الأبيديات..

أنا لستُ بخير يا ناي.. لستُ بخير!

آلان كايا

ناي

أيا وطني الضائع..

تحية طيبة وبعد:

إنني لا أفرمك، ولا أستطيع أن أفرم البرود الذي أصاب
قلبك ومشاعرك وتفكيرك!!

وصلتني رسالتك الأخيرة، وليتها لم تصل...!

ليتي عميت قبل أن أقرأ تلك الدرجة اللابالية إن لم
يكن بمشاعري، فبأعلامنا التي رسمناها بكل براءة..

كيف تطلبين مني أن ألتفت لنفسي ومستقبلي وأن
أتعامل مع فراقنا "ببساطة"؟!

أقسم لك أنني أحسست بمخزٍ يكوي فؤادي كياً عند
قراءة هذا الطلب المحف!

كنت أقرأ وأهطل دمعاً..

أنهم من الداخل والخارج..

لم أكن في حالة تصديق لما في الرسالة.. وعندها
خطرت ببالي رسالة "بينلوب آلدايا" التي أرغمها أهلها
على كتابتها لحبيبها "خوليان كاراكس"³ فبدأت قليلاً
لهذا التحليل...!

عزيزتي ناي.. أنت تعرفيني جيداً
بل إنك تعرفيني أكثر من أكثر شخص في هذه الكوكب
القذر..

لم أكن يوماً محملاً سياسياً، ولا خبيراً بالعلاقات
الإنسانية، في الحقيقة لم أكن مدعي معرفتي بأي شيء
سوى حبك..

ولكن إنَّ ما حدث معنا، هو أمر خارج عن كل القيم
الإنسانية التي ننتدق بها ليل نهار وندعو لها، إن

3- خوليان وبينلوب: بطلا رواية ظل الريح للإسباني كارلوس زافون، وهي رواية كنا قد
قرأناها أنا وناي ذات يوم، فخوليان وبينلوب وقع كل منهما في حب الآخر، وتشاء أحداث
الرواية أن يجبر أهل بينلوب ابنتهم على كتابة رسالة إلى حبيبها خوليان مفادها: (عزيزي
خوليان.. في هذه السطور القليلة أرغب أن أعلمك بزواجي وأطلب منك ألا تكتب إلي بعد
الآن، أن تنساني وتلتفت إلى حياتك، لا أحقد عليك ولكنني أود أن أكون صديقة معك،
لقد أخفيتُ عليك الحقيقة، فأنا لم أكن أحبك يوماً ولن أستطيع مستقبلاً.. أتمنى لك
السعادة أينما كنت.. بينلوب)

هذه الأصنام القابعة في عقولنا والتي ندعوها مجازاً
أفكاراً، آيلة ببني جنسنا إلى زوال حتي!

قولي لي بريك ما ضرّ هذا الكون أن يتزوج كردي من
عربية؟!!!

إني واثق من أن السماوات السبع كانت لتبارك هذا
الزواج إذا كان قائماً على الحب والمودة، لكن البعض لن
يرنأ لهم نوم، دون أن يلوثوا فطرتنا بأفكارهم البالية،
وتقاليدهم التي صارت إلهاً لهم، متشكين بلباس
التنويرين والنفّاحين يقدمون النصائح والمواظع حينما
حلوا، وما أن يحسرهم الأمر حتى تجدنيهم يرتدون قناع
شرطة فكر بائد...!

أنا لا أستطيع تفهم هذه العقلية العفنة!!

إن المنطق السليم يقول أن البيوت تبني على الحب
والتفاهم، لا على لون البشرة أو نوع العرق والقومية أو
شكل الدين والمذهب..

لا بل ولنكون موغلين في السقوط إلى القاع وخوف أن
يسبقنا أحد إليه أضفنا على الخليط السابق عفن

الناطقية القمي، فكيف يمكن لرجل ينحدر من مدينة
نائية أن يتزوج بامرأة أوجدها القدر في مدينة كبيرة؟!
إنها القيامة حقاً!

ولكيلا يلاحقنا عار القبيلة فإننا نفضل شئ
العصافير المغردة خارج أسوار معتقداتنا حتى لو كان
على حساب تحطيم قلوب أبنائنا وتمزيق أرواحهم.. يا
للظلم!

إنني أستطيع أن أقرأ انزعاجك الآن يا حبيبي
وأحترمه جداً.. ولكن صدقيني أنا لا أكن أية ضغينة تجاه
أهلك، وإنما أمنت هذا التفكير الذي أوصلنا إلى ما نحن
عليه من يتم...!

والحرب يا ناي مأساتنا الكبرى، قبرنا الواحد، نائر
جوعى تلتزمنا دون أكتراث بمذاقاتنا المختلفة..

نحن جنودها ودقودها

نارها واستعارها

ولن تقوم حربٌ بدوننا

نحن الحرب يا ناي، نحن من نشعلها

نحن بأيدينا نطفئها

إلا أننا امسكناها حتى أصبحت زادنا للبقاء

وألف سحق لهذا البقاء!!

صديقني إن أخطر سلاح يهدد وجودنا ليس النابالم
الحارق ولا القنابل الذرية، وإنما الجهل والتخلف وتلك
العتقادات البائسة القابعة في دواخلنا.

آلان كايا

ناي يا حُلُوّي.. تحية طيبة وبعد:

كم يجب أن أكون مدينًا لك بسعادتي؟

كيف تستطيعين فعل ذلك!

كيف تستطيعين قلب كياني رأساً على عقب

أن تحولي شيخوختي اليائسة طفلاً ضاحكاً

أن تجعليني أحلّق بخفة غيمة فوق العاصفير
والفراشات، أن تكوني صبحي الحزين بعينيك الضاحكتين

أن تزرعي بالعشب الندي دروي المفرة

وحده طيفك يا حبيبتي، قادراً على أن يفعل بي كلَّ
هذه الأشياء وأكثر..

طيفك الذي يمرُّ في كنجمة تشقُّ الضوء تومض ثم
تختفي، قادراً أن يجعل وحدتي كثرة..

xxx

استيقظتُ لهذا الصباح على اتصال صديقي نهاد⁴
قاطعاً عايّ حلمي الجميل الذي كنتِ تزورينه كما كل ليلة،
استقبلتُ اتصاله بوابلٍ من الشتائم ليقابلها بضحكته
اللطيفة المعتادة:

- كم أحب أن أغضبك أيها المجنون، الناس تقول
صباح الخير وأنت تتهال عايّ بألفاظك السوقية! ولكن
لم التعجب فأنت نسيت كيف يتصرف الناس أساساً
بعزلتك الغبية.. كيف حالك ها؟

- كيف سيكون حالي وقد قطعت عايّ أجمل حلم كنت
فيه لكّي تسمعني الموشح اليومي! ألن تخلع عنك عباءة
الناصح؟ ثم ماذا تريد من بكرة الصبح؟؟ إنها السابعة يا
رجل!!

- أجمل حلم؟ الناصح؟! ههههه.. إنها ناي أليس
كذلك؟ إلى متى ستبقى سجين هذا الكابوس؟ إلى متى
ستبقى تقنات حياتك من الأحلام؟ إلى متى سيبقى
فرحك وعزنك رهينة لما عليه عليك عقلك الباطن في

4- نهاد الباشا هو صديق قديم باعدت بيني وبينه المسافات الطوال وبقي تواصلنا شبه
اليومي مقتصرأ على الاتصالات الهاتفية.

منامك؟! أفق يا أخِي واخرج إلى الحياة، إنها أكبر من أن
تقف على رحيل شخص مرما كان!!

- نهاد أرجوك ألم تمل بعد من هذه المحاولات؟ لقد
تكلمنا بما فيه الكفاية بخصوص هذا الأمر ولا أريد أن أبدأ
صباحي بهذا النقاش البيزنطي.. قاي الآن لماذا تتصل في
هذا الوقت؟

- هيا تم بتغيير الموضوع مثل كل مرة أحشرك بها في
الزاوية، جادوني هل تحب أن تبقى تعيش؟!

- إنني أفضل أن أبقى تعيشاً على أن تكون حياتي
خالية منها.. هل ارتحت الآن؟!

- يا لغبائك!!

xxx

لقد كان هذا حديثنا الصباحي اليوم عنك في تلك
المكالة، وأعرف أنك تقولين الآن أنه محق في كل كلمة
قالها، ولكن دعيني أقول لك ما أقوله له دائماً.. إن
الشاعر لا تبني على المنطق ولا تعترف به أساساً ولهذا
جعلها الله تنبع من القلب لا من العقل!

ناي الجميلة جداً هل لي أن أطلب منك شيئاً يا
عزيزتي.. إني أسألك ألا تحرميني من طيفك اللاتني كل
ليلة، وأن تبقي برائحة عنقك تعبق في كل صباح حتى
أمتلئ بتلك الرائحة التي تختصر الأنوثة كلها..

آلان كايا

ناي..

أيتها القاسية جداً، الخنونة جداً جداً..

عندما أعود بعلاقتنا إلى بدايتها، وأفكر في انجراف
مشاعري نحوك رغم كل الحصون والخنادق التي وضعتها
حول قلبي، لكيلا أهوي في أية علاقة تذهب بي إلى
حيث أخشى، بغض النظر عما ستؤول إليه نهاية هذا
الطريق المحتمل كلا النهايتين من سعادة أو شقاء.. ولعل
هذري البالغ فيه نمّ عن إدراكي لذاتي ومعرفتي
لطريقتي المجنونة في الحب، والتي يصعب على أي أحد
تفهمها، أو القبول بها، وقد رأيت جزءاً كبيراً من هذا
الجنون!

إنني أجزم أنني أستطيع أن أكون معتدلاً متوازناً في
كل شيء من أمور حياتي إلا الحب، فأنا متطرفٌ به لأبعد
الحدود، إن حبي حارقٌ كالسيل، عاصفٌ كالإعصار،
حارقٌ كالشمس، إذا أحببَ قلبي تداعت له باقي الأعضاء
بالشوق والرهفة، وكما أنني أبذل روحي وجسدي قرباناً

لن أحب فقد رُضيت أن يُبدل نصف ذلك من أجلي،
ليس اقتناعاً بأنصاف الحلول فهذا ليس من رجلي، وإنما
معرفةً مني بأنني لن أجد أحداً يحب بطريقي الجنونية!

هل كنت مخطئاً حين اعتقدت أن كل تلك الأيام التي
جمعتنا جعلتك قادرةً على استيعاب ما قد أقبل به، وما
لا أقبله أبداً أبداً؟!

إلا أنني كثيراً ما يساورني الشك عندما أتذكر أنك
الوحيدة التي كانت قادرةً على فهمي بدرجة لم أعتدها
من قبل، بل إنك كنت تستطيعين فهمي أكثر مما أنا قادر
عليه كأنك أنت من كَوْن ما فيَّ!!

فماذا إذن؟!

لماذا تدمرين قلبي بهذه الطريقة؟ حتى وأنت بعيدة
جداً تواظبين على ذلك! تفعلينه وكأنك في تحدٍ بينك
وبين ذاتك، كأنك تريد أن تثبتني لنفسك أو لي أو لا
أعرف لن بأنك تمتلكين موهبةً في قتلي كل يوم!!

ولعل ما يقررني أكثر أنك دائماً ما تجدين مبرراً لقتلي،
ودائماً ما أجد لك ألف عذر لذلك إن عجزت بكل ذكائك

عن إيجاده! كنت أعلنك الطرف المنتصر في كل مرة
وأعذر لك عن قتلي لأنني أعرف أنني معك في حالة
حب لا حالة حرب، والخسارة هنا ليست للطرف
الأقوى بل لن يحب أكثر..

ولعلك الآن تتساءلين عن سبب رجعتي غير العادة
هذه.. حسناً، بالأمن وعلى سبيل المصادفة راسلني
أحد الأصدقاء يحدثني عن أمر ما، وبعد الانتهاء من
حديثنا سألتني عن أخبار علاقتنا إن كان قد طرأ عليها
جديد؟ أجبت نافياً، ثم فجئت حين أرسل لي عن حسن
نية صورة حديثة لك تبدين فيها بكامل زينتك قائلاً:
لا بد أنك اشتقت إليها.. هاك هذه الصورة صبر
قلبك بها!

محتفظاً بكل البراكين التي انفجرت في داخلي، سألته
عن مصدر الصورة! قال إنها من صفحتك على برنامج
(إنستغرام)!! حاولت أن أقنعه بأن يقول لي أن هذه
محفز مزحة غبية، إلا أنه زودني بالعديد من الصور التي
نشرتها مؤخراً!

لن أهدئك عن مدى التلف الذي تسبب به هذا الخبر
لروحي لأني أظنك تعرفين، تعرفين ذلك مسبقاً ومع
ذلك تفعلين!

وبينما كنت أحاول أن أصحو من هول الصدمة اتصلت
قمر، واستفسرت عن ثقل الكلمة في حلقي على غير
عادتي، فلم أخبرها بما علمت، وسألتها عنك آملاً أن
تكذب لي ما علمت، لكنها أجبت في داخلي البراكين
المتفجرة وصار يصعب على أحد أن يخمدّها الآن..

قالت لي أنك خلال الفترة الأخيرة أصبحت على
تواصل يومي مع بعض أصدقائي⁵ وأن علاقتكم القوية
الجديدة تدعو إلى الاستغراب!!

انتبهت قمر إلى الذهول والصمت الذي أصابني وقالت
محاولةً التخفيف عني والتبرير لك:

- لا تشغل بالك يا آلان ولا تحزن أريجوك، أنت تعلم
أن ناي طيبة القلب، ولعلها تحاول الخروج من حالة

5- أمتنع عن ذكر أسمائهم حفاظاً على خصوصيتهم!

الحزن الّتي رافقت فراقكما بأن تشغل نفسها بعلاقات
جديدة وتجربة أمور أخرى!

جاوبتها: عذر أقبح من ذنب، وأنزيت الكالة ثم
غبت.. غبت عن كل شيء حولي، غارقاً في وحدتي
وهمري ودمزقي..

لقد كنتُ أستجدي منك الحرف فكتب لي غيري

والحُ عليك بأن تشرقي عليّ كل يوم فتمنعني

أردتك أنت فقط فاخترت سواي، فإذا عساي أن
أفعل؟! أنا الغبون المنفي المذبح، الغارق في حزني من
نقرة رأسي حتى أخضع قديمي..

لقد ألهمت غيرتي المقدسة عليك، لم تراعي مشاعري،
ربما ولأول مرة أنا عاجز عن إيجاد نصف مبرر للأفعالك
هذه.. أنا آسف.

إن داخل كل منا تسكن خبيبة ما تتغفل في قلبه
تتغذى من روجه؛ حتى يظن مع مرور الوقت انها
تلاشت في جيب الذاكرة؛ إلا انها لا تزال تسري في دمه
حتى تسيطر عليه بالكامل، إنك لا ترين أناساً في
الطرق أنت ترين خبيات تمشي أمامك يا خبيتي
الأخيرة.

آلان كايا

نأي يا وجمعي..

يا وجمع كسمائي..

إن وجرى هذا الصباح هو التعريف الأبلغ للحزن!

أشرقَت الشمس على الكون منذ قليل، وما زال الظلام
يخيم على قلبي

والنور منطفئ من عينيّ حتى بدا لي هذا الصبح عتمة
موحشة..

لم أستطع النوم أبداً هذه الليلة على الرغم من كل
الحبوب النومَة التي تناولتها، والتي نصحني الطبيب
بالتخفيف منها، ولكن دون جدوى! فأنت تعرفيني
جيداً.. لم أعرف يوماً معنى حياة متزنة، فأنا أشرق حين
أضحك، أهطل حين أبكي، أنكسر حين أحزن، وعندما
أنكسر فإنني أتشظى حتى لا يُعرف إلى أي شيء كنت
أنتهي قبلها!

منذ قليل قدم لي ساعي البريد صندوقاً وُضعت عليه لصاقة كتب فوقها: "يُعاد لهذا الصندوق إلى المرسل لرفض المرسل إليه استلامه!"

وقعتُ على استلام غيبتي كما طلب مني ساعي البريد، ودون أن أفتح الصندوق فت برميته من شرفة المنزل على أكوام من الاسفلت كانت تُجهز لتزفيت الشارع.. كنتُ قد علمت منذ أسبوع أن هديتي التي أرسلتها لك ستعود إليّ بعد رفضك استلامها، أو حتى النظر إليها.. حتى بعد كل تلك المحاولات الحثيثة التي قامت بها قمر لإقناعك على قبولها! والتي كان ردك عليها: "لا يمكنني قبول شيء من آلان.. هو يعرف ذلك ويفهمه وسيفهم رفضي بكل تأكيد!"

منذ سمعت هذه الكلمات، وعلمت رفضك لهديتي التافهة وأنت قد أعدتها إليّ، وأنا لا أشعر سوى بالذهول، أحاول تحليل ما حدث عليّ أستطيع أن أفهم ما لا يفهم لكن دون جدوى...!

إني أحسن بالتعب الشديد، أشعر أنني مجهدٌ جداً من جور الأيام على قلبي الكسير، لا أستطيع البوح ولا الصراخ، تجتاحني فقط رغبة جامحة بالبكاء.. أريد أن

أَبَايِ وَأَنْسِجِ مِثْلَ الْأَطْفَالِ؛ حَتَّى تَخْرِجَ مِنْ حَلْقِي كِرَةً
الشُّوْكَ الْعَالِقَةَ فِيهِ مَسْبَبَةً لِي هَذِهِ الْفَصَةُ الْمُؤَلَّةُ..

لَكِنْ مَا يُؤَلِّنِي حَقًّا أَيْتَهَا الدَّافِئَةُ هُوَ هَذَا الْوَقْتُ الْخَالِي
مِنْكَ، إِنْ قَلْبِي يُنُّ كُنَايَ جَرِيحٍ عِنْدَمَا أَسْتَشْعِرُ بَعْدَكَ
عَنِي أَيْتَهَا الْخَصْبُ الْوَحِيدُ فِي حَيَاتِي الْمَقْفَرَةِ..

يَا أَوَّلَ الْكَلِمَاتِ

يَا وَجْهَ السَّمَاوَاتِ

يَا أَجْمَلَ النُّجُومَاتِ

يَا أَصْدَقَ الصَّلَوَاتِ

يَا فُجْرِي وَوَاحْتِي وَأَيْلَتِي

يَا تَرْزِيمَةَ شِعْرِي

يَا حَيْرَتِي وَتَوْبَتِي وَهَوْلِي وَرَحْمَتِي وَغُرَامِي وَجَنُونِي..

كُلَّ مَا أَقُولُهُ فَيْكَ عِبْتُ

الْكَلِمَاتِ وَالْأَوْصَافِ كُلِّهَا بِلَا جَدْوَى

لَا شَيْءٍ مِنَ الْأَبْجَدِيَةِ الَّتِي أَحْفَظُهَا بِمَكْنِهِ وَصَفِكِ

لا لغة في الوجود بإمكانها أن تشرح مدى حبي لك

ثقلُ حُبِّك أنا يا نايي الحزين

كيف لي أن أنام خفيفاً دون كل تلك الأفكار السيئة
عن ماضينا.. المخيفة عن مستقبلنا؟

منذ تفارقنا وأنا أرغب بليلة هادئة أنام فيها خالياً
من الذاكرة..

هل يمكن لي أن أتقياً كل حزن العالم الساكن في
أعمامي، وأحمله لينام في الغرفة المجاورة بعيداً عني لليلة
واحدة؟

هل يمكن لهذا الحزن أن يكون نبيلاً أكثر ما أحلم
ويغادرني إلى الأبد؟!!

نعم إلى الأبد سيكون ذلك.. عندما تنامين بجواري
بدلاً منه، أنظر في عينيك دون أن أرمش

أمرر أصابعي على وجهك

أهترق بهربب أنفاسك

أغوص في عمّة شعرك

أقول دون أن يرتجف صوتي:

يا ناي.. يا أناي...!

وأغمض عيني حينها إلى الأبد..

ماذا أفعل الآن؟ أحتاج الكثير من الهدوء والتركيز لكي
أستطيع فهم وتحليل ما حدث؛ لذا فقد قررت الذهاب
بعيداً بعيداً حيث لا أحد إلا قلبي وطيفك..

وضعتُ بعض المستلزمات في حقيبة، وتركت ورقة
أخبر فيها أي أنني قد أغيب عدة أيام، وقبل أن أخرج
لمحت عودي مرمياً على الخزانة.. تذكرت أنه كان مؤنساً لي
في كثير من أيام عزلي فأنزله من على ظهر خزانتي
وخرجت، أشرت بيدي لأول سيارة أجرة وذهبت إلى
بيت أحد أصدقائي البعيد جداً عن أعين كل شيء..

من الجيد أنني لم أضع مفاتيح بيته بعد حيث استأنني
عليه قبل سفره! أوصلني السائق إلى العنوان الذي
أعطيته إياه، دخلت مرتاباً دونما سبب، وقبل كل شيء
أخرجت العود من حقيبته وكنست عنه طبقة الغبار،
استدعيتني رغبة جامحة بالعزف حينها، على الرغم من

أن أوتار العود بدأت تتأكل بسبب إهمالي لها إلا أنه لا يزال جيداً، ولا يزال يحتمل عزفي السيء عليه!

حين ترمي بك الدنيا على شتات الأرصفة تلقفك الموسيقى، وحين تغرقك الحياة وحدها الألحان تمد لك يد العون، لكن ما الذي ستفعله لك الموسيقى حين ترزلك الأغريات؟!

شرعت أعزف كل الألحان التي أجيد عزفها، منتقلاً بين المقامات كلٌّ بحسب أغنيته، أشدّ وتر الدو حيناً وأزفي الصول، وأضبط المقام على البيات فيخرج اللحن متناقلاً: "حب أيه الاي أنت جاي تقول عليه.. أنت عارف قبله معنى الحب أيه"؟! تنتقل الرشة بخفة لتبحر في النهاوند وتصدح: "بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق.. بكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق" ..

أعيد ضبط الإيقاع مرة أخرى فترهب ربح الصبا لتملأ المكان: "هو صحيح الرها غلاب؟ معرفش أنا.. والرجل قالوا مرار وعذاب واليوم بسنة"! يبدو أنني أحتاج أي شيء غير مقام الصبا وألحانه وأعزانه، "مفناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده" صاح الحجاز!

لم تعجبني هذه الحالة فقد بدت لي المقامات وكأنها
تحاصرني وتتلاعب بي، فأعدت ضبط الأوتار مرة أخرى
وجعلتها على درجة سي نصف يمول من أجل أن
يخرج لي مقام الرزام المفضل لدي، صفوي العشاق وراحة
الروح كما يقال، بدأت ريشتي تتنقل بين ألحان هذا
المقام: "يا فؤادي لا تسلك أين الرهوى.. كان صرحاً من
خيال فؤدي".. لا أدري ما قصة السيدة أم كلثوم معي
هذا الصباح!!

انتقلت إلى لحن آخر فوراً: "بحياتك يا ولدي امرأة
عيناها سبحان العبود.. فيها مرسوم كالعنقود، ضحكاتها
ألحان وورد، لكن سماءك مطرة وطريقك مسدود
مسدود"...! انقطع أحد الأوتار بعد أن نزلت ريشتي
عليه بقوة متجاهلة تعليمات مدرس الموسيقى بأن أعامل
الوتر بحففة!!

حسناً هذا أفضل فلم تكن الموسيقى ما جئت من أجله
بكل الأحوال، قلت لنفسِي..

شرعت باستكشاف النزل لأعرف ما ينقصني في
عزلي الطارئة هذه.. كان مكاناً غريباً: ليس بيتاً ولا

مزرعة، وتصميمه يدل على أن مهندساً لم يأت إلى هنا أبداً، ولا أستغرب ذلك فصديقي غريب الأطوار أكثر من تصميم هذا المكان..

فقد اختار قطعة أرضٍ وسطٍ منحدرٍ جبليٍّ، لا هي على قمته ولا هي في سفحه، تبعد عن أقرب نقطة سكنية مسافة نصف ساعة بالسيارة تحدها أراضي القمح من كل حدب وصوب حتى إذا ما نظرت في الأفق تقاطع مع نظرك أخضر القمح مع أنرق السماء..

يدخلك الباب الرئيسي إلى أرض الدار، والتي تقودك إلى غرفة كبيرة بجانبها درج يصعد بك إلى أرض دار أخرى، وغرفتين ملتصقتين بينهما باب!! أما المطبخ والحمام فقد بنيا في آخر أرض الدار العلوية، وبجانبها درج يقود إلى سطح البيت! ومن اللافت أنك تستطيعين الصعود إلى الجبل من أي مكان في هذا البيت فهو متداخل به بطريقة عجيبة! وفي حين حصص الغرفة الكبيرة التي في الأسفل من أجل مختبره حيث يجري أبحاثه الكيميائية، فقد كانت الغرف في الأعلى لا يقل داخلها غرابة عن خارجها..

تتوسط الغرفة الأولى مدفأة تعمل على الحطب، وُضع حولها كرسيين معلقاً أمامهما على الحائط سبورة خضراء، وفي زاوية الغرفة هنالك أربعة رفوف دُقت بالحائط لتكوّن مكتبة.. وشباك كبير يتوسط الجدار المقابل للباب حيث يطل على أراضي القمح، ويمكنك النظر من خلاله دون الاضطرار إلى الوقوف!

أما الحائط الرابع فقد كان يتوسطه باب يؤدي إلى الغرفة الملاصقة إلا أن الباب غير موجود!

في الغرفة الأخرى هناك إسفنجتان موضوعتان بجانب بعضهما في وسط الغرفة، إضافة إلى دسائتين فوقهما أغطية للنوم، وفي زاوية الغرفة كومة من الحطب الصفوف بعناية.. فقط!

حقيقة لا أدري لماذا أصر على أن يعطيني مفتاح هذا المكان واستأمني عليه، فالله الذي سيتعنى طريق الوصول إلى هذا البيت لن يجد شيئاً يسرقه!

في المطبخ كان هناك زوجان من كل شيء.. صحنان، ملعقتان، سكينتان، وقطتان لا يتجاوز عمرهما ساعات قليلة، لكن أمرها ليست موجودة!

راودني شعور الخيبة بالقدوم إلى هذا المكان الغريب،
وقررت أن أتصل بسائق التاكسي الذي أوصلني متدماً إلى
هنا ودسّ في يدي كرتة الخاص قبل أن أنزل وكأنه يعرف
أنني سأحتاجه أسرع ما أتوقع!

أحتاج ساعتين على الأقل لكي أصل إليك.. أحباب
السائق!

ليس بيدي حيلة غير الانتظار، وكأنني خلقت له في
هذه الحياة!

بدأ المساء يتسلل أقرب ما هو معتاد، رغم أننا في
فصل الربيع، ولا أدري أكان هذا المساء حقاً أم أن
الغيوم السوداء التي داهمت السماء بغتة هي من تسببت
بهذا الظلام!

أخبرتني يوماً أن السماء ما هي إلا دالية نبئت فوق
الأرض، ثم تدلت منها القصيدة أنثى من حبك اللغة..

- قلتُ والليل؟

- هو تعب الصباح من الذكريات، تأويلٌ ونقص
تفاصيل، خردجٌ عن النص، خلكٌ في الأوزان، وصراخ
قافية...!

وبينما كنتُ أراقب مذعوراً هذه الوحدة الوحشة، لع
وجه السماء ونزلت خيوط البرق بأشكالها المتشابكة إلى
الأرض، وتلاها دوي الرعد حتى ظننت أنه لن يتوقف
حتى يقتلع قلبي من مكانه! أسرعْتُ إلى الغرفة تحت
ضربات هبال المطر التي انهمرت كأنها عطشى للأرض
وتريد النزول إليها بسرعة..

تذكرت قول جدي: "أذار أبو الزلازل والأطمار"! هل
سيحدث زلزال يا ترى؟ ألا يكفي كل تلك الزلازل التي
تحدث داخلي! أنرتُ مصابيح الكهرباء، وقررتُ أن أشعل
الدفأة لكي تؤنس وحشتي، أشعلت بعض الحطب
الموجود، أخذتُ أتصفح الكتب المصفوفة على الرفوف،
ورغم أنها كلها كتب متخصصة بالكيمياء إلى أنني حاولت
قضاء الوقت ريثما يصل سائق التاكسي..

اشتدَّ هطول المطر، وعلا صوت الرياح.. "أنا أخاف
الرياح وأتشاءم من صوت صغيرها" تذكرتُ أنني قلتُ

لك هذه الجملة عندما كنتِ تبوحين لي بخوفك من الحب
والستقبل، وسألتني حينها وأنتِ ما تخاف؟ لا زلت أذكر
دهشتك من هذه الإجابة!

تذكرتُ القطّين فجأة، فخرجتُ مسرعاً لأمضيهما إلى
الغرفة، لكنّ ولكي تزيد تعاسي فإن واحدةً منهما كانت
قد فارقت الحياة..

أمضرتُ الناجية منهما على الفور إلى جانب المدفأة،
ولففتها بإحدى الأغطية الموجودة.. ترى أين أمها؟!

لا بد أنها تحتاج بعض الحليب لكنّ من أين! تذكرتُ
أنني أمضرت الكثير من الشوكولاته البيضاء التي أدمن
عليها، لا بد أنها تصالح فكونها الرئيسي هو الحليب
قلت لنفسي..

أمضرت من حقيبتَي قطعة كبيرة ودضعتها تحت
المدفأة حتّى تذوب.. لفتتُ قطعة ورقٍ على شكل بوق،
وضعت طرفه الرفيع في فم القطّة المسكينة وصرت
أسكب الشوكولاته من الأعلى، كنت قلقاً جداً لكنّ بدا

لي أنها استساغت الطعم.. اتصلت بالسائق مرة أخرى
لأخبره أن يحضر بعض الحليب معه إلا أنه لم يجب!

عاودت الاتصال به عشرات المرات دونما إجابة..
ساورتني بعض الشكوك والخاوف!

كان الظلام قد حل بشكل كامل، والعاصفة في
الخارج لم تهدأ وإنما تزداد قوة شيئاً فشيئاً، وأنا والقطعة
وحيدتين، متردلين، وخائفين!

ماذا سأفعل الآن؟ ماذا حل بالسائق يا ترى؟ هل
يعقل أن السيارة انقلبت به في هذه العاصفة وحدث
له مكرهه أنا السبب فيه؟ ماذا سيحل بي؟

ولكي يزداد الأمر سوءاً عما هو عليه، انقطعت الكهرباء
بفعل لمعة برق أضاءت وجه الأرض ثم غابت مخلفة كل
ظلام العالم!

يتسلل ضوء خفيف من النار الموقدة في داخل
الدفأة، لكن هذا لا يكفي.. تذكرت أنني قد رأيت العديد
من الشموع في غرفة المختبر، هرعت لأجلبها جميعاً..

أضأتُ الشموع وجلست بقرب المدفأة أنشف نفسي
من المطر الذي أغرقني بمجرد خروجي ودخولي سريعاً،
كانت القطة نائمة على الكرسي المجاور، ولاحظة
أحسستُ بأنني بدأت أحبُّ جوَّ الغرفة وأتوحد معه!

دوى صوت الرعد مرة أخرى ليفتح باب الذاكرة بفتة:

في مثل ليلة كرهذه وُلدت فيّ، ومني..

من قوقعة الحلم خرجت، من دفاتر طفولتي حتى
ريعان شبالي..

من كل ما رسمتُ ذات ليالي كثيرة عنك وعن
الفراشات..

جئتِ أجمل وأنقى بكثيرٍ ما تمنيتُ..

xxx

جئتِ كنجمٍ وحيدةٍ مضاءة وسط سحائي الوحشة
العمّة.. حينما كنت أواجه كل ظلم العالم وقسوته وحيداً
بيدين عاريتين وقلبٍ دائم، ودروجٍ يعصف بها الصقيع
والنفى.. وقتها لم أكن أرى لنفسي أي متسع من حياة،
ولا بصيصٍ لأي مستقبل تافهاً كان أم جيداً..

لم أكن قادراً حتى على تخيل مصيري، أو التنبؤ بما قد يحدث لي وسط هذا العالم الموغل بالجور والجبروت.. أما الماضي فلا طاقة لي بالالتفات إليه؟ ماذا سأرى في الخلف لو نظرتُ غير آلامٍ مبرَّحةٍ وسوادٍ داسٍ؟!

إن قلبي يعتصر ألماً كلما تذكرت أنه لا مكان لي لأذهب إليه عندما أحتاج أن آوي إلى مكان ما، ولا كتفٌ أسند رأسي إليه إذا اشتد بي الكرب وضائق عليَّ الدنيا.. وعلى الرغم من كل هذا كنت دائماً ما أصد من قعر الجحيم بمفردي، وأقف مرة تلو المرة حتى يظن الجميع أنني لم أقم في حياتي قط..

وبينما كانت الحياة عريضةً على أن تديقني من القرار والظلم ما يكفيني دهرين.. جئتُ أنتِ كضوء الفجر البديع، وحدكِ كنتِ عوني وسندي وسعادتي..

لا زلت أذكر العرشة التي سبها حضورك البري في.. جئتني كالدين الجديد، ما بعدكِ يجبُ كل الحرمان قبلك..

جئتِ كفكرةٍ، كدهشةٍ، كنسمةٍ عابرةٍ لطيفةٍ.. كان لقاءنا أشبه بحكايةٍ أسطوريةٍ! لم أكن معتاداً على أن

يَتَغَلَّغِلْ أَحَدٌ فِيَّ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ.. كُلُّ مَنْ عَرَفْتَهُمْ طَوَالَ
حَيَاتِي لَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْ رَوْحِي مِثْلِكَ..

لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْغُوصَ فِي خَبَايَايَ، لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ
أَحَدٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِسِ جِدَارِ قَلْبِي كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ بِهَذِهِ
الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ جِدًّا!

كَلِمَاتِكَ كَانَتْ كَالسَّحَرِ! أَهَادِيثُكَ اللَّطِيفَةُ كَانَتْ
قَادِرَةً عَلَى كُنْهِسِ طَبَقَاتِ الْغُبَارِ الْمُرَاكَّةِ فَوْقَ حَيَاتِي
بِشَكْلِ لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَنْ أَتَعَجَّبَ لَهُ!

كُنَّا نَبْجُرُ بِأَهَادِيثِنَا: مُحْرَبَةً وَتَجْرَدَ، كَعَابِرِي سَبِيلِ التَّقْيَا
عَلَى قَارِعَةِ طَرِيقِ مَا، وَسَيَفْتَرِقَانِ بَعْدَهَا إِلَى الْأَبَدِ
مَوْقِنَيْنِ إِلَّا أَحَدَ سَيَفْضِي مَا أَسْرَأُ أَحَدُهُمَا بِهِ لِلْآخَرِ..

كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.. كُلِّ شَيْءٍ تَمَامًا!! مِنْ أَصْفَرِ
الْأَشْيَاءِ وَأَكْثَرِهَا سَطْحِيَّةً، إِلَى أَعْقَدِ الْمَسَائِلِ الْوُجُودِيَّةِ!

تَحَدَّثْنَا عَنِ الْمَوْسِيقَا بِأَنْوَاعِهَا كُلِّهَا.. سَمِعْنَا الْأَغَانِي
الطَوَالَ بِلُغَاتِهَا كُلِّهَا، تَنَاقَشْنَا فِي الْمَعَادِلَاتِ الرِّيَاضِيَّةِ
الْعَقْدَةِ، تَحَدَّثْنَا فِي الْفَنِّ، فِي الدِّينِ، فِي الرِّيَاضَةِ، فِي
عُرُوبِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى، فِي أَكْثَرِ النِّكَاتِ إِضْحَاكًا

وأتفرسها على الإطلاق، في الموضة والأزياء، حتى
قطاف الشاي في مزارع الصين لم يسلم من نقاشنا..

كان الحديث معك سهلاً شريفاً، لم أكن أريده أن ينتري
على الإطلاق.. وأذكر الآن حماسي المتهرب للأبد الحديث
معك عن كل ما رأيته أثناء النهار، ولم أكن أستطيع أن
أكبح نفسي عن الحديث معك في أبسط الأشياء، غير
مضطر إلى تحميل المفردات أو لأن أكون بارعاً في السرد،
كل ما احتجته هو أن أتحدث بعفوية مطلقة، موقناً أنك
لن تسيئي فهم أي كلمة أقولها، سواءً عن حديثي حول
أكثر أشياءي خصوصية أم حتى عن لحظة شروق الشمس
وهطول المطر وغياب القمر..

ولأن ردي كانت في اغتراب دائم، ولكثره ما عانيت
من قسوة الأيام، كان لا يفارقني شعور بأنني دائماً
أناك أقل ما أستحق...! إلا أن دخولك الخلو إلى حياتي،
نسف كل تلك المشاعر الحزينة، كأني ولدت من جديد..

إن مجرد معرفتي بك كانت فكرة رقاقة لطيفة،
وشعوري بالألفة عند الحديث معك كانت أجمل بكثير

من ألف شعور آخر! ولعل الإنسان في نهاية المطاف
بحاجة إلى أن يفهمه أحد هم أكثر من حاجته إلى الحب...!

والحبُّ.. هو ارتجائ القلب، يأتي إليك أحد هم، يكمل
نقصك ومضي دون أن يطلب منك شيئاً أبداً.. ولا حتى
الحب!

قبل أن ألتقيك كان ينقصني الكثير، أدركت ذلك حين
اقتربنا، ويزيد يقيني بذلك كلما اطمأن قلبي لك، وما
حيلتي إن كانت الطمأنينة تسكن جوارحي كلها كلما
التقت أعيننا؟!

لقد كنت لي ذاك الشعاع الذي يولد بعد المطر، قادماً
من السماء، مخترقاً كل الغيوم السوداء المكفرة، لينشر
النور والجمال حيثما حل.. هل أصابك الانبهار من الجمال
الذي يضيفه على كل شيء؟ الطريق المعبود، أشجار
السرو والزيتون، أسقف القرميد فوق البيوت، رائحة
أزهار الليمون بعد أن حررها من المطر، وحبات الماء
المتلألئة على سطح البحر.. كل هذا الجمال الذي صنعه
شعاع ذهبي فحول هو بعض ما كانت تفعله عينك إذا
ما أظرت على قلبي الصغير..

عينيك اللتان رسمتا لي حدود وطني جديداً عوضاً عن
وطني الضائع..

لقد أحببتُ فيك كل شيء.. حتى عينيك وهما
مغمضتان، شفاهك، أسنانك، عنقك، كتفيك، صوتك
وأنتِ تحكين لي قصةً مضحكة، يديك الدافئتين، أفكارك،
روحك النقية البريئة، والتي لا يملكها حتى أكثر
الأطفال براءةً، أحببتُ كلَّ شيءٍ فيك حتى نطقك
لحروف العلة! لقد دخلتِ قلبي كما تدخل الملكات
المحوبات إلى أوطانهن..

أصبحتِ وبفترة قصيرة كل شيء بالنسبة لي.. صرتِ
بيتي وصباحي وعلمي، وطني وأهلي، وقصيدي الجميلة،
أنتِ أكثر ما أردتُ ذات يومٍ وكل ما أشتهيه.. وكل ما
أريده هو أن أبقى قريباً منك حتى آخر العمر..

xxx

يبدو أن العاصفة لن تهدأ، بل على العكس تماماً فري
تشد أكثر فأكثر، والخوف والذعر يتسربان إلى أعماقي أكثر
فأكثر..

سُحِن هَاتِفِي يَكَاد يَنْفِذ، وَسَائِقُ التَّكْسِي لَمْ يَجِب حَتَّى
هَذِهِ اللَّحْظَةَ! هَلْ أَتَّصِل بِأَيِّ لِيَأْتِي كَيْ يَنْقِذَنِي كَمَا يَفْعَل
دَائِمًا، أَمْ مَاذَا سَأَفْعَلُ؟!

بَدَأَتِ الْقِطْعَةُ تَمُوءُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ، يَبْدُو أَنَّهَا بَدَأَتْ
تَحْسِنُ بَعْدَ أَنْ دَفَأْتُهَا جَيِّدًا، حَمَلْتُهَا إِلَيَّ وَنَظَرْتُ فِي
عَيْنَيْهَا.. لَا أَدْرِي لِمَاذَا رَأَيْتُهَا مُثْقَلَتَيْنِ بِالْحُزْنِ!! قَرَرْتُ أَنْ
أَسْمِيَهَا "نَاي".. نَفْسُ الْأَسْمِ الْمُسْتَعَارِ الَّذِي أُسْمِيكَ بِهِ،
وَالَّذِي يَحْمِلُ بَيْنَ حُرُوفِهِ الثَّلَاثَةِ ذِكْرِي خَاصَّةً جَدًّا بَيْنَنَا،
وَمَعْنَى لَا يَدْرِكُهُ سَوَانَا...!

وَلِأَنَّيَ أَكْتُبُ لَكَ بِاسْمِكَ الْمُسْتَعَارِ الَّذِي اخْتَرْتَهُ لَكَ،
فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ أَسْتَخْدِمَ اسْمًا آخَرَ اخْتَرْتَهُ لِي
أَنْتِ ذَاتَ يَوْمٍ..

اشْتَدَّتِ الرِّيحُ فِي الْخَارِجِ، وَيَبْدُو أَنَّهَا بَاتَتْ تَقْتَلِعُ كُلَّ
شَيْءٍ فِي طَرِيقِهَا، أَشْعُرُ بِذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَتَطَايِرَةِ الَّتِي
تَرْتَضِمُ بِالنَّافِذَةِ.. جَوُ الْغُرْفَةِ كَانَ كَالْحَمَامِ السَّاحِنِ،
وَالشَّمْعَةُ فِي الزَّاوِيَةِ تَعْكَسُ ضَوْءُهَا الْخَفِيفَ عَلَى دَجَرِي
وَدُجْهِ الْقِطْعَةِ الصَّغِيرَةِ، وَلَا صَوْتٍ يعلو فوق صوت

احترق الحطب في المدفأة، وصفير الرياح في الخارج.. كدتُ
أن أغفو قليلاً لولا الصوت الذي اقتلع أحشائي وزلزل
الدنيا كلها، أضاءت السماء الأرض كلها، ثم تلا الضوء
دوي الرعد مرة ثانية، ليدخلني دوامة الذاكرة مرةً أخرى:

كانت الأيام بيننا في تسارع متزايد، فجأة ودون أن
ننتبه، وجدنا أنفسنا متجربين أمام بعضنا من كل
الأسرار، أصبحت تعرفين عني كل شيء كما لم يعرفه أحد
غيرك، وبتّ أعرف كل شيء عنك منذ يوم ولادتك
حتى يوم حديثك معي...! أتذكرين ذلك المساء؟ في
العشرين من شهر شباط، حيث كانت العاصفة داخلي
تشبه هذه الليلة العاصفة تماماً يبرقها ورعدها، عندما
اقتحمت بكل ما أوتيت من دفء صفحتي على الفيسبوك،
وأرسلت لي رسالةً تحثيني فيها على البكاء، وأني ما
دمتُ أبكي من أجل غيري، فهذا يدل على أنني ما زلتُ
إنساناً ولم أتحول إلى مسخي بعد!

لقد جاءت رسالتك هذه بعدما رأييت منشوراً على
صفحة صديقتنا المشتركة قر على الفيسبوك، كان

فيديو مصوراً للدكتور سلمان العودة⁶ يرثي به زوجته بعد أن فقدوها بحادث سير.. وقتها علقْتُ متأثراً بحزن ذلك الشيخ الطيب الصابر، أنني لم أعد أملك ما يكفي من الدموع أبليها على أعزائي بعد أن استهلكتُها على أعزائي غيري!

فاجأني ردُّك حينها.. وفاجأني أكثر أنه من شخص لا يوجد بيني وبينه معرفة! تكلمتُ مع قر قبل أن أحيب عليك، وسألتها عنك مستغرباً، وقرأتُ عليها ما كتبتُ لي، أجابت: "هذه ناي.. هذه من لا يخطئ قلبها أبداً ولا يخيب حدسها على الإطلاق، منذ زمن وأنا أبحث عن فرصة مناسبة لأعرفك عليها، وها هي قد جاءت إليك من غير ميعاد"

أجبتُ على رسالتك وقتها، واستمررتُ بالحديث حتى شروق الشمس، كانت تلك بدايتنا، بسيطة بريئة صادقة، بدأنها بحديثنا عن الحزن، وأنهيناها بذلك، وما

6: في لحظة كتابة هذه الكلمات يقبع الدكتور سلمان العودة في ظلمات السجن، وكلي أمل أن يكون قد خرج إلى النور قبل هذه الكلمات...!

بين حزنٍ وحزنٍ كان لنا نصيبٌ من الفرح، لو قسمناه
على أهل الأرض جميعاً لفاض عنهم..

وماذا بعد؟ لقد حدث أن وُلِدْتُ أحاديث تلك الليالي
الطوال حباً عظيماً صادقاً نقياً، ألى دون أن نسعى إليه..
ولأكون صريحاً، فقد كان كلانا حذراً من انجراف
مشاعره تجاه الآخر خوفاً من تجاربنا السابقة والتي لم
تنته، حتى تأكدت من الصدق الذي أحدثته في قلوبنا!

لكن وعلى الرغم من حذرنا البالغ فيه ذلك، فقد كان
الحب يتسرب إلينا دون أن نشعر به، ولم نملك في نهاية
المطاف سوى الانصياع له مؤمنين بقلوبنا..

احتجت أربعة أشهرٍ حتى أمتلك شجاعة مصارحتك
بحبي لك، والذي لم أكن بحاجة لأجرب به، فقد كان جلياً
واضحاً لك كعين الشمس، كانت الساعة الثامنة من
صباح الرابع والعشرين من حزيران، حينها وأُعترف الآن
أنني لم أتم لثلاث ليالٍ قبلها من شدة خوفي أن
أخسركِ إثر هذا الاعتراف غير المفاجئ!

لم أكن بحاجة لأن أشرح لك لماذا أحببتك، ولم أكن
بحاجة لأبرر لِنفسي كيف صمدتُ أمام الأُفريات بينما
انجرفتُ نحوك بكل سهولة وبكامل إرادتي..

لم ترفضني حينها ما جئتُ به، بل اعتذرت لي إن كان
حُبكِ قد تسبب لي ببعض الحزن، واستغرق الأمر منك
بعض الوقت لتعتذري عن دخولك إلى حياتي، والذي
كان سبباً لأن أحبكِ الآن، يا لبراءتك ونقاؤك!

كنتِ شجاعةً أكثر مني لتمنعي عن التصريح بمبادلتني
الشاعر ذاتها، رغم أن عيونكِ وكلماتكِ كانتا قد
فضحتكِ، ولأنكِ لم تكوني من ذلك النوع المتكبر الذي
يتلاعب بمشاعر الآخرين.. فقد اقترحتِ يوماً أن نخفي
في علاقتنا ريثما تمتلكين الشجاعة الكافية لتقولي لي
أُحبكِ: "إنني ألك وأكنُّ لكِ الشاعرَ يا آلان لن أكذب
عليكِ، ولكنني أحتاجُ شجاعة الكون كله لكي أنطق بتلك
الكلمة، لأنها ليست مجرد كلمة وحسب، إنها شيءٌ أكبر
منِي ومنكِ، وعند قولها يجب أن أكون كفواً لها، حينها لن
يكون هناك مجال للتراجع ولا للخذلان، عندئذٍ أعرف

أنني سأكون درعك، ولن أتركك وقتها تواجه سيف
الخبية وحيداً.."

لقد أحببتك بكل ما فيك من صدق ونقاءٍ وتشتيتٍ
وارتباك، فأحببني إذن حتى تزهو حدائق الله في قلبي
الكلیم، أحببني حتى يزرغ من عيني الضياء، أحببني
أكثر.. فأنا أقتات حُبك في ليالي الطويل، فتعالِ قبل
غياب القمر، قبل هطول القذائف فوقنا، وقبل أن يفوتنا
القطار معلناً الرحيل..

ثم جاءت "أحبك".. لتقول لي أن الربيع قد حل أخيراً
في حياتي، وأن ما هو قادم سيعوضني عن كل الحرمان
الذي عايشته...!

جاءت "أحبك".. لتُحيك بؤسي فرحاً، وعذابي نعيماً،
وضيقي سعةً، جاءت لتنير لي طريق الليل المظلم، جاءت
لتمسك بيدي وتقودني بلا خوفٍ أو تيهٍ أو وجل..

جاءت "أحبك".. رغم كيد الوشاة والحساد والمنافقين،
جاءت رغم التحذيرات الكثيرة جداً التي وجعها لك حتى
أحد أقرب "أصدقائي"...!

جاءت "أحبك" ..

مثما -تجيء الأنبياء بكل قداسةٍ

مثما -تجيء المولود بالفرح يملأ المكان

مثما -تجيء الليل بالسكون

مثما -تجيء زهرة الليمون بعطرها في ليلةٍ صيفيةٍ

مثما -تجيء الصبح بالضياء

جاءت بكل الجمال المحسوس الذي أوجده الله في هذه

الدنيا ..

لقد أجهلتُ هذا الحب و قدستهُ، حتى تراءيت لي حُماماً
من أحلام الجنة، لقد وددتُ لو أني أستطيع أن أجمع
سعادة العالم كلها وأضعها في قلبك لأردّ لك بعضاً ما
مكته لي ..

أحبك قدر سكينه قلبك، ونقاء روحك، أحبك حجم
الشوق الذي يصنعه غيابك فيّ إذا ما غبت، أحبك قدر ما
أنت عنيدة، جميلة، ذكية، فريدة، فجولة، هادئة،

مشتة، طفلة، فاتنة، جبانة، نقيّة، شقيّة، لطيفة،
مترددة، صادقة..

كانت مجرد فكرة وجودك في حياتي أعظم سني وعون
لي، فكرة أنك تحبيني كانت تملؤني بكل ما هو جميل
ومقدس!

لقد أحببتك كما لم أحبّ أحداً في حياتي، أحببتك كما لم
يفعل أي إنسان، وإنني أشعر بالغيرة والضيق الشديد
عندما أقول لك شيئاً، ثم أعرف أنه قد قيل لحبيبة غيرك
من قبل!

سأظلّ أحبك، وسأظل أردّد أغانينا للطيور
والفراشات والأزهار.. إن عاماً ونصف العام معك عن
ألف ألف عام دونك، سيبقى حبنا يطر عليّ وعلى
الحقول للأبد دائماً وأقول: إنني أحبك..

ولا أقول هنا بأننا خلال علاقتنا لم نمر ببعض
المشاكل والمطبات، فهذا أمر لا بد منه، بل إننا وصلنا في
بعض لحظات الحزن والغضب حد اللارجعة، لكننا
استطعنا تجاوز مشاكلنا معاً دائماً، مرة معتمدين على

ذكائكِ ومراتي على سعة صدري، وحين يخذلنا الجميع،
كان حُبنا هو النقذ الوحيد!

لقد تلاقى روحانا وامتزجت، وعزف نبض قلوبنا
أعذب ألحان العشق وأجملها على الإطلاق، وتفاهم
عقلانا كأنهما قطعة واحدة قسمت على رأسين.. كنا قد
خططنا لمستقبلنا وحياتنا معاً، ووضعنا تصورنا لبيت
سيجمعنا عما قريب، واتفقنا على أدق التفاصيل.. كم كنا
سعيدين وبرئيين وغبيين...!

xxx

استفقت على صوت هاتفي يرن، إنه السائق!!

- أين أنت لماذا لا تجيب على اتصالاتي؟!

- لقد انزلت سيارتي قليلاً في المحذر المؤدي إليك،
ولن أستطيع القدوم لإعادتك هذه الليلة، تدبر أمرك!

- ليس لدي شكن يكفي إلى الغد في هاتفي، ولم
أحضر طعاماً، أرجوك حاول القدوم الآن وسأضعاف
لك أجرتك!

- سأ...!

نفذ شحن الهاتف دون أن أعرف ما كان سيقول
السائق، لكنني خمنت أنه سيأتي بعد أن أغراه العرض
الذي عرضته عليه!

أخرجتُ ثلاث قطعٍ من الشوكولاته البيضاء
وتناولتها، بقيت واحدة قررتُ أن أذيها لأطعمها للقطعة
التي اتخذتُ من حضني مستقراً لها، وما إن أطعمتها حتى
راحت تدبُّ بأرجلها الغضة الخافية، كم تمنيت لحظتها أن
أسير مثلاً حافياً.. ولكن من الذكرة! وبينما كنا نحاول أن
نشغل بعضنا أنا وناي "القطعة" عن العاصفة، دوت ثالث
رعدة انكسر زجاج النافذة لشدة صوتها:

xxx

إن هذه الحياة لم تُخلق لمثلينا، نحن البسطاء طيبوا
القلب.. نحسب أن كل الناس مثلنا، إلا أننا لسنا سوى
سُدج أغبياء، لأن هذا العالم القدر يحتاج وحوشاً
ليعيشوا عليه لا أناساً!

لقد رفضني أهلك..

رفضوني ليس لأي سبب منطقي من الأسباب
التعارف عليها، بل نظروا إلى أشياء وأفكارٍ عفا عليها
الزمن، وكأننا نعيش في أحد عصور ما قبل الميلاد!

رفضوني لأنني لا أنتمي لنفس قوميّهم، رفضوا أنني
من مدينة صغيرة.. فقط!

نعم فقط.. هذه كانت إجابتهم بكل بساطة! هذا
كان رد أناسٍ يُعرف عنهم عقلم الرائج، وتفكيرهم
المنفتح وأفكارهم المجددة...! لكن يبدو أنها قشور لا
أكثر، وكما جرت العادة، فإننا عند كل اختبار يتعلق بنا،
تسقط عنا تلك القشور فننتعز لتظهر سوائنا للجميع..

وبدأت معركةنا الخاسرة التي لم نحسب لها حساباً أبداً،
دخلناها مرغمين عارفين أن النصر والخسارة فيها واحد،
ولم نملك خياراً غير أن نحاول مواجعتهم سوياً، على
الأقل اعتقدت ذلك...!

لقد كان يحزنني كثيراً أنك في وجه المدفع، وأن كنتي
بعيداً عن حزنك، وأني لا أستطيع طي الأرض لأصل إلى
قلبك فأحتضنه وأصد كل تلك السهام المصوبة نحوه..

ألا تَباً للمسافات، تعجن روحنا بيديها ثم تلوّكها، ومن
ثم تبصقها تحت أقدام العابرين، فلا هي تنفع لأي
تُقدّم قرباناً لمن نحب، ولا هي تنفع لأن تكون رصيفاً
لهم يمشون عليه هناك، في منفي الروح وصقيع
الغربة..

إنني لم أعد أملك لنا إلا الدعاء، لأن الله الرحيم يرى
كل شيء، وعدله لن يقف ليتركنا وحيدين نشاهد
جراحنا تنزف، وأهلنا التي أحلها لنا تستباح دون أن
يفعل شيئاً، إن الله سيشفق علينا ويرأف بحالنا لأنه
يعلم كل شيء، ويعلم أن قلوبنا بيضاء ونوايانا سليمة
نقية ولا تستحق أن يفعل بها ما يفعل الآن..

وكما هو الحال في الحروب لا بد من طرف خاسر، وقد
اخترت أن نكون الطرف الأضعف ولم نستطيع الصمود
أمام جولة واحدة فقط!

لا شيء يمكنني تذكره الآن إلا وعودك ذات يوم بأنك
ستدودين عن هبنا إذا اضطر الأمر، كما تدود اللبوة عن
صغارها...!

بل وأستطيع أيضاً تذكر قولك بأنك إن قلت يوماً إلى شخص ما أحبك، فهذا يعني أن تتحملي مسؤولية هذه الكلمة وأن تدافعي عنها وتحملي كل تبعاتها...!

وأذكر قولك لي: لا تظنّ ذات يومٍ بأنك وحيداً.. أنا سأكون موجوداً دوماً لأجلك وأجل حبنا، ولو كلفني ذلك كل ما أملك وما لا أملك...!

ولا يغيب عن بالي قولك لي: إن خيروني بين الحب الذي منحني إياه وبين هذا الكون بمن عليه لاخترتُ حبك دونما تفكيرٍ أو تردد...!

كل هذه الوعود ذكرتك بها في ليلة السابع من نيسان، حين جئتَ تزفني لي خبر هزمتنا واستسلامك، وتعلنين بأن الفراق سيتوجع آخر محطات هذه العلاقة...! جئتَ تعلنين النهاية بدم باردٍ وكأن الأمر لا يعنيك بالطلق! أو أن جنوني لدى سماع هذا الخبر قد خيل لي ذلك؟! لا أدري...!

لا أعلم ما حلَّ بك تلك الليلة، فقد كنتِ شخصاً آخر لم أعرفه على الإطلاق، كنتِ تحاولين إقناعي بالرضوخ للفراق وكأنه أمر طبيعي، قلتِ فلنفترق من أجلنا ومن

أَجَلُ هَذَا الْحُبِّ، إِنَّهُ يَسْتَهِلُّكَ أُرَواحِنَا بِحِمْلِ لَ طَاقَةِ لَنَا
بِهِ!!

لَا وَلَفَرَطِ الْعَجَبِ، صَرَيْتَ تَسْرِدِينَ لِي كَيْفَ أَنَا لَمْ نَكُنْ
مَلَأْمِينَ لِبَعْضِنَا، وَمَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ يَحْثُ كُلُّ مَنْ عَنِ
سَعَادَتِهِ مَعَ شَخْصٍ آخَرٍ! هَلْ جَنَنْتَ؟! لَقَدْ كُنَّا نَتَكَلَّمُ
عَلَى الْمَهَاتِفِ هَذَا الصَّبَاحِ وَكُنْتَ تَقُولِينَ لِي كَأَنَّا لَمْ نُخْلَقْ
إِلَّا لِنَكُونَ سَوِيًّا فَإِذَا حَصَلَ!!

وَضَعَيْتَ سَكَائِيكَ فِي قَلْبِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ ثُمَّ غَبَيْتَ
الْغِيَابَ الْأَخِيرَ، دُونَ أَنْ تَسْمَحِي لِي حَتَّى بِأَحْظَةِ وَدَاعٍ،
وَكَأَنَّ قَتَلَ الْعَوَاطِفِ لَا يَسْتَفِرُقُ إِلَّا لِحَظَاتٍ! غَبَيْتَ وَلَمْ
أَمْلِكْ سِوَى الذَّهُولِ وَالْقَهْرِ وَالِدُمُوعِ..

كَيْفَ لِلْفِرَاقِ أَنْ يَجْرِفَ حُبَّنَا قَبْلَ الْلِقَاءِ؟ كَيْفَ لَهُ أَنْ
يَفْتِكَ بِأُرَواحِنَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ؟ وَمَا بَيْنَ لِقَاءٍ وَفِرَاقٍ،
ذَاكِرَةً سَتَعْصِي عَلَى النِّسْيَانِ..

مَنْ أَوَّلَ الْخَيْبَةِ حَتَّى آخِرِهَا، كَمْ تَلَّتْ رِيَّاحُ الْمَسَافَاتِ
عُرُوفَ غِيَابِكَ، وَرَدَدَتْ أَسْمَكَ.. فَامْتَلَأْتُ وَاحْتَشَدْتُ
بِالْحِكَايَاتِ..

أنا كم قلت أمامك أن البدايات أمُّ النهايات.. في النهاية
يبدأ أحدنا بالتفكير بالبداية..

يا آخر الخييات، والتي صار قلبي مقبرة جماعية لها..
أصبحتُ خاوياً من الداخل بعد أن رحل كلِّي معكِ،
أعلم أن حكايتنا انتهت منذ زمن لكنني أفتقدكِ، وأعلم
أن وصلكِ محال، وأن لقاءنا في الجنة، وأعلم أنني أحبك..

لقد استهلكتني حُبكِ، وأصبح الحلم ثقيلاً جداً، ولكنني
سأضي إليه مهما توارى عني، إنني لا أملكُ ولا أئنس
ولا أريد أن أئنس، وأريد أن أقضي حياتي كلها وأنا
أحبكِ، حتى لو كان هذا الشيء هو كل ما أفعله في
حياتي كلها، لأن هنالك خسارات كبيرة لا شيء
بعدها يستحق الحزن.. كرحيلكِ.

سأظل متعباً من ليلةٍ ستعيش في طيلة حياتي، إنني
سأدفن في السبعين من عمري ربما وهذا غير مهم، لأنني
ميتٌ قبلها بكثير، ميتٌ يوم تركتني وحيداً..

جريحٌ أنا..

خسرت كل المعارك، حتى لم أعد أدري بأي معركة
سقطت...!

ماذا لو أنك عُدتِ...؟

ماذا لو أن شيئاً من غيرك عبق هذا المساء:

لهدأت العاصفة

لتفتق النرجس في البراري والجبال

لهارت بلادي.. بلادي

لتمتَّ القبل على شفاه العشاق

لانتريت المجاعات

لالتقت الأمهات بأبنائهن الضائعين

لانتصر الثوار في كل مكان

لعمّ الهدق قلوب الناس

لأطرت السماء وروداً وحباً

فالتقط وردةً وأقدمها بين يديك..

xxx

عصفت الرياح في الغرفة تماماً بعد انكسار زجاجها
النافذة، وقلبت الطمأنينة والدفع داخلها إلى ما يشبه
فوضى الحرب، انطفأت الشموع وانقلبت الدفأة على
الأرض، وتطاير الرماد منها ليملاً جو الغرفة وأصبحت
الرؤيا تكاد تكون مستحيلة، لولا بقايا الجمر الذي انتشر في
أرجاءها..

سمعت مواء القطّة وهي تستغيث، ولم أستطع أن
أجدها لولا صوت الأوتار القادم من العود الذي كان
مركوناً بزاوية الغرفة، وصلت إليها بصعوبة حيث كانت
مخبئة داخل قفص العود! أغرجتها على الفور
وأحسست بجسدها النحيل يرتجف، فاحتضنتها محاولاً
طمأنتها: لا تخافي يا صغيرتي، لا بد أن يزرغ النور بعد
كل هذا الظلام، ولا بد لهذه العاصفة أن تنتهي، هل
سمعت عن عاصفة استمرت دهرًا؟ حسناً.. باستثناء
العاصفة التي في داخلي...!

بدا أن كلماتي للقطّة المسكينة مجرد هراء، فقد اشتدت
الرياح وعلا صفيحها، ودوى معها صوت الرعدة
الرابعة، كأن لن ترعد السماء بعدها أبداً:

أيتها العزيزة على قلبي جداً.. ما هذا الجفاء الذي
أصبحت عليه فجأة؟!

هل افتراقنا يعني أن لا تُجيبني على رسائلي؟!

هل هنتُ عليكِ إلى هذه الدرجة؟!!

الأمر ليس كما تظنين، ينترني بكبسة زر!!

إنني أحتاجكِ أيتها القاسية التي لم ترتطم إلا باللين
الضعيف..

إنني لم أستوعب حتى الآن كيف أنك احتملت فكرة
إجهاض الحب الذي كان بيننا ومضيت دون أن تكتري لما
سيحل بي...! ولا تقولي لي عكس هذا الكلام أرجوك،
فكل ما تقومين به لا يدل إلا على شيء واحد:
الكذب...! وأنا أريد أن تبقى صورتك في مخيلتي نقية كما
كانت على الدوام.

إن قلبي الذي يتهدع الآن هو قلبي الذي أحبكِ
على الدوام، هو قلبي الذي يحنُّ لك الآن حينين الطفل
إلى صدر أمه، فماذا توصلين كل الأبواب في دجري؟!!

لقد ترّني بالأُمس ¹⁷كرم وهو على اطلاع بكل
قصتنا، وأغضبه لهذا الجفاء المبالغ به منك، فقال لي ما
دأبت تصدُّ عنك بهذه الطريقة، ولم تراعي قداسة ذلك
الحب، ولم تأبه لقلبك، فلماذا تستمر بحبها؟

أتدريين ما أحبته يا ناي؟ لو خيروني بين التوقف عن
حبك أو الموت في سبيله، فإنني لن أباي أن أقتل كل
يوم ألف مرة على أن أعيش لحظة واحدة دونك..

ثم ماذا؟ ثم جاء جواب كل شيء.. لقد أفضيت العام
المنصرم أتجرعُ مرارة فراقك، وأذوبُ حنيناً إلى وصالك
دون أن ألتقي منك نظرة عطفٍ واحدة.. كنتُ أضع لك
قطعاً من قلبي مزوجة بالشوق والارفة داخل ظرف
وأرسلها إليك، ثم لا تلبث أياماً حتى يطرق ساعي
البريد باب منزلي ليعيدها إليّ قائلاً وهو يهرز رأسه ناظراً
إليّ بعين الشفقة: رفض الرسلُ إليه استلام الرسالة...!
وكأي عاشق أحمق.. كنتُ أجد لك مبرراً لذلك!

7- كرم باكير صديقي منذ الطفولة، وكان صديقاً لナイ أيضاً.

حدث ذلك منذ أسبوعٍ حين اتصلتَ قمر لتخبرني أنكِ
رفضتِ استلام الكتاب الذي أرسلتهُ لكِ، والذي رأيتهُ
تستجدين الغرباء في صفحتك على فيسبوك من أجل
الحصول على نسخةٍ منه، الأمر الذي أشعلَ داخلي بركاناً
من الغيرة، جاعلاً مني ألهم خمسة أشهر وراء الكاتب
لأحصل منه على نسخةٍ موقعةٍ باسمكِ..

لم تُفاجئني قمر بذلك الخبر، وطلبتُ منها أن تُعيد
المحاولة من أجلي، لكنَّ صمتاً ثقيلاً أصابها قبل أن
تفجعني:

- ليس الأمر كما تظن يا آلان، لن تقبل ناي هديتك
أبداً، لأن الأمر لا يتعلق بك كما تظن! ليس لها رغبةٌ
بتخطي الأمر وعدم الالتفات للخلف فحسب، وإنما ببدايةٍ
جديدةٍ كلياً..

- ماذا تعنين بذلك؟!

- لقد أخفيتُ عليكِ الأمر لأنني لم أرد أن أكون غراب
الشؤم بالنسبة لك، لكن حان الوقت لأخبركِ وكلَّي
رجاءً أن تعذرنِي..

-؟

- هل تذكر ذلك الشاب الذي تقدم لخطبتها عندما
كنتما معاً؟

- لا أذكره وإنما أذكر رفضها له!

- لقد اتصلتُ به ناي وأخبرته بموافقتهما..

- متى حدث ذلك؟!

- بعد أشهرٍ قليلةٍ من فراقهما..

- قمر.. أنتِ لم تكذبي عليَّ أبداً، فلماذا تفعلين ذلك
الآن؟!! إنه حتى ليس الواحد من نيسان فلماذا هذه
المزحة الغبية!!

- أقسم لك أنني أتمنى لو أنها كذبة لكنها الحقيقة،
بالأسس أرسلتُ لي صورتها معاً يحتفلان بعيد
ميلاده..

- أرني تلك الصورة!!

- لا داعي لذلك أرجوك!

- أرني تلك الصورة لأتأكد أنها ليست مجرد مزحة
سخيفة!

رأيتُ تلك الصورة وليّتي لم أرها! مررتُ بالكثير في
هياتي، ذقتُ قساوة الحرب، نزفُ أشخاصٌ أُصبرهم بين
يديّ حتى الموت، تجرعتُ مرارة الخذلان والخيانة والظلم
من أقرب الناس لي، لكنني لم أشهد ما هو أسوأ وأشدُّ وقعاً
على قلبي من رؤية صورتك بجانب شابٍ غيري، يدك
تحتضن يده، تنظرين إليّ وتبتسمين..!

xxx

عندما تحاولين أن تكوني مطرفةً، فكاري بوردية خلف
سياجٍ بارد وهي تجتاز رصيف واقعها بعطرها الخفيف..
هل كانت تمنى لو كانت غيرها...؟

عندما تحاولين أن تكوني مثاليةً، فكاري بواقٍ لليدين أو
بقفازين، وأنت تنتقين مبدأً أو فكرةً خلال استماعك
لمقطوعةٍ موسيقية.. هل كنتِ ستحامين أكثر...؟

عندما تحاولين أن تكوني طائراً، فأكري بسماً منخفضة
وجناحين صغيرين كي تشعرِي ببشريتكَ تطفو في
الرياء..

عندما تحاولين أن تكوني نفسك، فأكري بغيرك، وكل
هم الذين ليسوا كذلك، ومن هم عندما تفكرين بهم..
انظري بعيونهم، واسترقي دقيقة نبض من قلوبهم،
واشتمّي في أرواحهم الوردّة التي تجثو رابضة على
أحلامهم، تُرى من هم الآخرون حينها؟ هل تبقى لك
الرغبة في التفكير بعد...؟

عندما تحاولين أن تكوني وحيدة، فأكري بشمعةٍ ووردّةٍ
في كأس هنا جانبك.. ما الرابط بين شمعي ذابلٍ ووردٍ
يزبل...؟

عندما تحاولين أن تكوني شيئاً، فأكري باللاشيء،
وابدئي أولى الخطوات.. ماذا كنت تريدِ أن تكوني...؟

عندما تحاولين أن تفكري بالعطاء، فأكري بشجرةٍ
قطوفها دانية تخفي روعة جذورها تحت التراب، ولا
تنفك تثمر كي تعطي وتمنح الغريب الذي رماها بحجرٍ
رغبةً بسد الحاجة ولم تسأله المقابل..

لكن عندما تفكرين بالغفران.. لا تحاولي أن تكوني شيئاً ولا تفكري بشيء، لأن الغفران هو المساحة التي نتقبل فيها بعضنا عراةً خالين من أيدي صاغت غيرنا..

لقد درطنا شكسبير بمقولة: (الحياة مسرح).. فإما أن تكون متفرجاً أو مثلاً..

وجئت هنا أبحثُ عني.. هل أنا متفرجٌ، أضحك وأبكي؟ أم مثلاً، أضحك وأبكي...!

هل نحن شركاء في صنع الحدث فكتب علينا اعتصار الدمع والألم إلى النهاية؟ أم نحن شركاء في الصمت نغادر القاعة متى شئنا؟

والتفتُ ورائي وأنا أنزع الدمع عن عيني، وأغسل ذاكرتي من الألم الملتهق بها كي أراك أتضحكين أم تبكين؟ في أي مقعد تجلسين؟ أم تُراك غادرت القاعة؟!

واليدان تكلمتا كثيراً.. تشابكتا بحاضرٍ مسح الغبار عن عدساته، وتحمل حقائبه وينوي الرحيل، صمتنا طويلاً، وتلعثمت الأصابع في الفراغ المسكوب حولنا ودخلنا، والفرق يفصح أكثر عن الكلام داخلنا، والشفاه مطبقة،

والعينان تعبَتان من التحديق بمجهول يمد الطريق لسكة
قطار لا تأبه بالراحلين أو القادين أو المودعين أو
المستقبلين..

الذاكرة مخدرة من حنين يشتعل الآن على دفتها..
هل خُلقنا نحن لهذه اللحظة وكلانا يستقل قطار
الزمن؟!

ونام بين أيدينا الحلم، ونام خلفنا الدخان في ليل
محطة القطار..

خوفٌ وصمت.. خوفٌ داخلي يهلك، وصمت
الساعة في السادسة صباحاً.. صباحٌ براحة الخيبة!

هل سأمت؟! لا أظن.. مرَّ الموت بي منذ سنين ولم
ينتبه لوجودي فرمى قنبلةً وغاب...!

ماتت القطعة بين يديّ مرتجفةً من البرد والوحدة،
وعشتِ أنتِ بين يديّ غيري..

بين أن نُخلق ونموت، علينا أن نجيب عن جميع
الأسئلة المتعلقة بالحياة، ولا وقت لنا لأن الامتحان
سينتري.. ولا يبدأ بعد، فلا امتحان لنا سوى قياس

درجة حرارة الجسد قبل وبعد الموت ومقابلة وجه
الطبيب، ثم.. غيابٌ مر...! فنزقُ ليلتنا السوداء على
هودج خشبيٍّ وصمتٍ من الواقفين، ننام ليلتنا الأولى
تحت سماءٍ لا نجوم لها، تحت سقفٍ من طينتنا لا يراقبنا
أحد، لا يرمس خلف الباب أحد.. الوقت توقف
والنسيان بدأ، ونستري دمعين..

دعنا نعود للمدينة.. قال سائق التاكسي

لا.. لا تحلم بالعودة، سنكون محض أشباحٍ تائهةٍ عن
شواهدنا، سنرمي بالمجارة أو ستر كض المارة بعيداً عنا،
غصة سننسى.. غصة محبون غيرنا..

أغمض عينيهِ وقهرها على حقيقة.. اقترب أكثر مني،
ولفني بوشاحٍ أبيض: لسنا أحياء لأحد، قال السائق!

آه لو يقتسمون معنا هذا البرد.. أجبت!

صار قلبي فرشاة رسمٍ قلقة، تبحث عن سلام وعن
كلام، يغسلها ما في عينيكَ من ديفين ولهبٍ ودمةٍ
عابرة.. فما الكلام مبرماً، وصار لرباً، وصار وجعاً،
وصرت ألي تجاهلك، وصرت محاة..

صار قلبي فرشاة رسم قلقة، تبحث عن أمان، لا
أحد في البدء أجد حياكتي ليلاً، نهاراً، طائراً، وترّاً،
شاعراً، عاشقاً.. لكن ما في عينيك أسدك شريطة سوداء
في كتاباتي، على ذاكرتي، فبعثني..

ودخلنا الحفل الأخير نطرح آخر القوافي، نتلبد بالحب،
ونطرح بالنسيان..

ثم وحدي دخلت الإحصاء
كنت طقساً آخر يرعد

يبرق دونما طر

دونما ألوان

وصار القلب لا يحسن رسماً

كسر فرشاته

نام على الصفحة البيضاء عاجزاً

وصار هو الآخر ممحاة...!

كانت لدينا الوصفة والمقادير لكن النتيجة اختلفت،
لا لنقص في العناصر، بل لأننا أكثرنا من القلب قليلاً،
وقللنا من النرجس داخله، وتركناه على نار هادئة..

فهل كررتنا التجربة؟!

حين دخلتُ، نزلتُ تجاهك، وأفرغتُ دمي لك لتسري
بي، فانداد النزفُ وانددتُ ألماً، وصرتُ السائل الذي تحتر
فيّ، فتعثرتُ بدمي على الأرض ولم أعره اهتماماً.. لأنك
هنا...!

هل جئتَ لتضمدي الجرح، أم لتكتبي الألم؟ فهذا أنا
جسدٌ ودّع روحه منك ولأجلك...!

أكبر غفرانٍ هو ألا تنسيني، فاعشقينني كما أريد،
وانسيني كما تريدن.. واغفري كما يجب أن يكون الغفران،
فلا نسيان لن لا يغفر، ونعمة النسيان الغفران...!

قبل أن أحسني بالليل جسداً لي، واستهلك الدموع
والشموع، وأشاهد انهيار الفحولة.. كنتُ طفلاً يغشاه
النعاس في الثامنة، يطفئ الضوء وينام وحيداً من
المستقبل، قبل الاحتفال بفائض الوقت.. بالمكان
والزمان، كنتِ فكرةً تمرّ دون ضجيجٍ أو لونٍ أو أثر..

وانهار الحام بيننا لأننا اكتشفنا المزلّة...!

قبل نهاية العرض، وإسدال الستار على الفصل
الأخير، بدّل النص من مزاجه وغير في تسريه داخلنا،

أسدل الستار على رجلٍ وامرأةٍ ينسحبان قبل النهاية،
لأن الفكرة باتت واضحة، ولأننا اكتشفنا الرهزة بقيت
الخاتمة كما يريد لها كل منا، مفتوحة على المدى.. فتعالى
لنعترف بالعجز، بالواقع، تحت السماء المختصرة..

لم تكن النهاية سعيدة، لكننا أكلنا الحوار حتى
النهاية، ولم تكمل الحب: رجلٌ وامرأةٌ اتحدا وانفصلا،
يكتنن عن جملٍ تكمل الحوار، يكتنن عن فضاء، عن
هائم، عن قلب، عن نديم، عن فراخ، عن غفران، عن
نسيان..

رجلٌ وحيدٌ وامرأةٌ وحيدة.. والسماء المختصرة بعيدةً
كتبت بحبر الغمام...!

للحب رجلٌ وامرأةٌ يحتاجان، والحب فرق بينهما، والحب
قصيدة، ولم تكمل الرواية، وصارت الرواية طريدة،
تبحث عن مبرر للنهاية الأكيدة، فكيف الآن أطفئ
أهلامي وأطفئ الثلج في الذكريات؟!!

كم وددت أن أسألك: ما الذي يبكي الغيوم إلى هذا
الحد؟ وكلما ازداد بكائها صارت أكثر خفة؟!

هل ثمة أكثر من وحدةٍ لكرسيّ جالسٍ في باحةٍ تحت
الطر...؟

هل عليّ أن أتألم مرتين؟ مرةٍ لأني لم أكن أنتظر أحداً،
ومرةٍ لأني انتظرتك!

هل فكرت في جنونٍ أغري بك دموعاً لا تبكي، دموعاً
تجري فيك جداولَ تدفع بك نحو الحزن؟

ماذا ستجيبني الأشياء لو سألتها عنا؟

ماذا سيقول عن كتاباتي أولئك اللذين لم يشموا
النرجس داخلي؟

هل هناك أغبى من شخص يحمل مفكّرتي داخل
ذاكرته، وينظر في المرأة فيرى وجهي وجره؟

من أين دخل الحب ومن أين خرج؟ ما هذا الثقب
داخلي؟!

هل هذا الصباح الوحيد العاصف هو ما يجعلني
حزيناً؟

لماذا الآن نقيس المسافة ونقدر حجم الدمار ونذكر
التورط؟!

لماذا صار الخوف والوحدة والحزن قوتنا اليومي؟

وماذا أقول لصديقي الذي سألني لو أتيح لك أن تعود
دقيقةً بين يدي من تحب لترمس بأذنها كلمات، ماذا
كنت ستقول لها...؟

لكي نكون واقعيين، علينا أن نطلب المستحيل..
ونسيانك بات المستحيل حولي..

وبتُّ أباعد بيني وبينهم، لكي أكون الأقرب الأبعد،
ولأقيس المسافة بيننا بعد الغفران...!

هناك أمور لا تقاس بالوقت والأيام.. كالحب،
كالنسيان، كالإيمان، كالحرية.. لأنها قد تقطع بك
مسافات كبيرة تدفعين لأجلها عمراً بأكمله، فهل يُقدَّر أن
أبكي على لحظة غفرانٍ أدفع كُرمي لها جسداً آخر، وروحاً
أخرى، وعمراً لو أتيح لي؟!..

لم أكن يوماً صريحاً.. لكنني لم أكذب ولم أخدع أحداً..

لا حدود للغفران، ونحن لا نعرف الغفران أبداً، لأننا
لا ننسى، ولا نريد أن ننسى!

كم تبعد عن ماضيك؟

أنا أحياء لحظة بلحظة، هناك تركت حصاني وسيفي،
هناك وُلدت، وهناك سَأَمُوتُ..

ألا ترى أننا مسجونون داخل دائرة محزنة، سجاننا
عقربان يلوكان تعويذة، ويتركونا جالسين بغيء ما
يريدان؟!

- تَباً للوقت...!

هل كان المكان هو الفخ أم الزمان؟!

حين لا أتذكر أنني فرحت، أتذكر الطفولة.. وأتذكر حين
ضممتك بين يدي وكتبْتُ اسمك عنواناً لفرجٍ على ورقٍ
أبيض اخترته ثوباً لك.. لم يكن المكان هو الفخ، لأنني
اخترت عينيك مصحاً لناظري وأنا أبدل في الاستعارات،
وأقلِّب التشبيه، أكني عن المكان بالأبيض البلاغي،
وأعبر عن انتمائنا للمكان..

كان يمكن أن ألتقي بغيرك، وأغير في دفتر المواعيد
مكاننا وأغير العنوان، فأضُمُّ اسمها إلى ورقةٍ توضع
مصادفةً لفرعي، وأكتشف تشبيهاً آخر أيسر على لغتي..

لم يكن المكان هو الفخ.. ثم بات المكان فخاً..

ولا الزمان.. لأني وُلدتُ مراراً على الكرسي الذي مر بنا
ولم ينسنا أبداً، لأني أعدتُ تشكيلي طفلاً آلاف المرات،
وكان الزمان حارسنا عند التشكل، وعند استيقاظ
الأحلام داعةً بين جفني.. كان يمكن أن أنساك
حينها، وأقضي ليالي بغيرك، وأكتشف لغتي وهي بيننا
تدلك الحب داخلنا وتدله لقلبي..

لم يكن الزمان هو الفخ.. ثم صار الزمان فخاً..

ها نحن الآن نروي لكل الأصدقاء صورنا معاً،
بسرديّةٍ لا تخلو من السخرية والتركم والندم.. ونرفض
أمامهم الأبدية، ونطيل التأمل في قمر كهلي يعبر أمام
ناظرينا، يلقي التحية ويجلس في الزاوية المقابلة لنا في
السماء، يشرب منا قليلاً ثم ينام ويتركنا غريبين كما نحن
الآن، نشرب من ضوء يأسنا في العودة أوسع..

ولفرط التشابه بيننا، أنسى الكلام بيننا نحن
الحاضرين معاً والغائبان دوماً، عندما نجتمع تحت سقف
قوس الأمل بين الغياب والإياب..

لم يكن الحبُّ هو الفخج.. لأنني تذوقتُ المطرَ الشرقي وهو
ينسكب من مقل السحاب، وقلتُ يا له من ارتواء...! فإذا
أريد من الأمل وأنا الآن أكرر الولادة بين الحب
والرغبة، وماذا أريد من الغد وأنا الآن كما أريد أن أكون؟!

لم يكن الحبُّ هو الفخج.. ثم صار الحبُّ فخاً..

وكأني اثنين تعلقنا بالأمل باللامل، وانتظرنا الورد في
الحدائق حتى يستفيق بين أصابعنا، وانتظرنا الحلم كثيراً
حتى أفاق من لغته العقدة وفك لنا كل ألغازه، وأهدانا
لذاكرة الغيم ذاك المكان العد لنا، لأشباهنا، نبحت عن
عروف الحنين قطرةً قطرة، وشوقٌ تبدد عن معنى،
وغيبوبةً في صحو سامعنا عندما همسنا للمستقبل
البعيد: أنا لك وأنت لي..

إذن فلنعترف لما جئنا لأجله هنا..

أحببك وأحبك.. وتفرّس الغمام بوجهِنا فأطال إبطاره،
وطاف بنا في حايٍ أعمق تأويلاً، فتمسكنا ببعضنا مخافة
الزلق في الغموض، وقررنا الرهوط عن أهلنا والمشي
على قدمين ترسمان لنا الطريق..

لكن الأمل لم يكن الفخ.. لأنني أفردت أجنحتي ملكاً
على اللامنتهى، وحضنت المدى بيني وبينك، وطرتُ بنا
نحو فردوس مخيلتنا، فضاعت السماء علينا، فقررتُ
الاحتفاظ بك وتركْتُ أجنحتي في المدى المفتوح على
اللا نهاية لأبرهن على الأبدية هنا وهناك..

لم يكن الأمل هو الفخ.. ثم صار الأمل فخاً..

في وسعنا أن نحبّ، ولم تخيلنا أننا هنا نحبُّ كي نُؤجل
النسيان والغفران قليلاً، لأننا رفضنا الموت مراراً.. هربنا
منه نظرق على كل الأبواب ونفتحها كلها، ونضيع
خارطة طريقنا ونرسم لنا درباً يمر بنا، ونكتشف
بوصلتنا داخلنا ونريها.. هنا لا حاجة لنا بالبوصله،
لأن جريتنا واحدة ومكاننا وزماننا واحد..

لم تكن التجربة هي الفخج.. لأن الربيع كُـرّر قدومه،
وكرر العصفوران الغناء، ولأني ما زلت أمشي وما زلت
تفحين نافذتك وتغلقينها كلما سمعتِ المدى ينقرُ بلفته
عليها..

لكنها البداية.. ونحن نختتم هذه المزملة والتي صار
اسمها ما كان بيننا من نرجس، نزل التراب عن المصيدة
ونلتشف الفخج، وتقف اللغة عاجزة عن الإفصاح..

لم تكن تلك البداية لهذه النهاية...!

والآن ونحن نسير ببطءٍ على عشبٍ نما بيننا، طرقي
الرأس مبتعدين عن الزمان عن المكان عن الحب.. نتنفس
حاضرنا كأننا لم نلتق أبداً، محاولين إقناع جسدنا
بالاعتناء كل بنرجسه..

لي روعي التي ستستفيق على هلم، ولك روحك
التي ستستفيق على آخر، ولتنفجر منا الأبدية نصراً على
موتنا..

فاستيقظي الآن، ولا تتلفتي حولك، فأنا لستُ
بجانبك، وقولي لقلبك بهبر الأنثى على الدمار: لنحيا

وحبيدين لهذا النهار، ولتدرب على النسيان، فقد
ودعني قلبي وغاب مع شمع ذابلة..

لم تكن البداية فئاً.. ثم صارت فئاً...!

لم تعد لدينا فرص إضافية نعطها لكلينا، إذن فلننحي
أنفسنا فرصة أخيرة.. أنت وأنا، لكي نعيد تشكيلنا كما
يجب أن يكون، لا كي نقنع ببعضنا.. بل كي نقنع
بأنفسنا، ولنثبت للأبدية ثقافة وجودها..

وإلا فلندخل لعبة النسيان، واثقين بنبوءتنا هازمين
حاضرننا العائب بأعلامنا ورؤانا، ومن خطانا، ولنتعامل
معهما بحذر.. لأن النسيان يأتي مرة واحدة ولا يتكرر،
فالشروق لا يتكرر سوى مرة في النهار.

وإن كان لابد من ذلك.. إذن فليكن كما يجب أن يكون..
ولتكن بيننا زهرة أخيرة، لا نسميها باسمها.. لكن
لها حقُّ البوح بالمناسب..

وإن كان لابد منا.. فليكن إذن ذلك، وليكن النرجس
بيننا ناطقاً رسمياً باسمنا، إذا سقطنا في الصمت وجمال
الابتسامة...!

أخشى على ذاكرتي من نسيان الغد، وأخاف أن أكل
سطراً آخر عنك.. فاغفري لي كي أنساك، وسأغفر لك
حتى أنسى، ولتغفر لنا كلُّ الأبواب التي فتحناها
وأغلقناها سويةً.. وليغفر لنا الدرب العبد لماضينا..
ولتغفر لأنفسنا...!

آلان كايا

انترى..

أنطاليا

2019-4-20

